
57
كتابي
إيثيل مانين
الطريق إلى بئر سبع
الجزء الثانى
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الطريق الى بئر سبع

الجزء الثانى

ايثيل مانين

الكتاب الثانى

المنفى

— ١ —

توجه « روبرت ملبى » إلى مطار لندن لاستقبال ابنته « ماريان » وحفيده « أنطون » .. وكان قد غادر ـ منذ أحد عشر عاما ـ هو وزوجته « الزبيث » البلاد التى كانت تسمى (فلسطين) من مطار كهذا المطار فى طريقهما إلى الوطن ، أو ما كان الناس يسمونه الوطن ، أما هو والزبيث فكانا يعتقدان أنهما إنما يغادران وطنهما الحقيقى ، لأن (يافا) هى وطنهما وليست لندن !.. يافا أو فلسطين بأسرها. ولكم ذرفت الزبيث من الدمع وهى تلوح بيدها من نافذة الطائرة فى ذلك اليوم ، مع أن ابنتها ماريان وطفلها كانا قد غابا عن الأنظار منذ وقت طويل .. وراحت تنهنه متمتمة لنفسها والطائرة تشق طريقها صاعدة :

ـ ترى متى نراها مرة أخرى يارب ؟

وها قد جاء جواب السماء . فهذا المساء القارس من أمسيات نوفمبر سنة ١٩٤٩ ـ بعد أحد عشر عاما ـ هو الموعد الذى حدده القدر لذلك اللقاء المنشود . ومع ذلك لم تأت الزبيث إلى المطار ، وجاء روبرت بمفرده ، لأن زوجته مشغولة بإحدى حفلات تلك الجمعيات العديدة ـ بين خيرية

ونسوية ـ التى تسهم فى نشاطها وتكاد تأكل حياتها أكلا . ولم يكن فى وسعها الاعتذار وهى من خطباء الحفل !

لقد قيل لـ روبرت أن صديقه بطرس منصور مات بعلة فى القلب ، لأنهم فى علم الطب لا يعرفون شيئا اسمه « تحطم القلب » على أثر صدمة مزازلة . ولكن روبرت ملبى يعرف عن يقين أن فلسطينيين كثيرين عدا بطرس منصور لابد أنهم ماتوا بتلك العلة ذاتها بعد « النكبة » !

أن هذه النكبة هى التى تأكل اليوم قلب ماريان أيضا ولا شك . ماريان التى غدت وحيدة فى الدنيا . أجل إن لديها ابنها ، ولكن المرأة بحاجة قطعا إلى « شىء ما » أكثر من الابن لمواجهة الحياة . ولكم كان هذا الابن فخورا بأبيه فى طفولته . وإن جده لأمه ليرجو اليوم أن يجد فيه حفيده مدعاة للفخر أو الثقة على الأقل . أن يجد فيه رجلا متزنا ذا همة ، يعتز كثيرا بأنه كان فيما مضى صديقا حميما لأبيه الراحل .

لقد كتبت ماريان إلى أبيها قائلة : « إن الصبى يشعر بأنه ينتمى إلى آل منصور اكثر من انتمائه إلى آل ملبى . وذلك بشير خير على كل حال . فلابد للفتى أن يشعر بعروبته . بأنه عربى . وبأنه فلسطينى . وأنه من سلالة شعب مظلوم مضطهد .. شعب أبيه المنكود » .

وفجأة أبصر بهما « روبرت ملبى » من باب بهو الجمرك المفتوح واقفين إلى جوار حاجز مثقل بالحقائب ، وماريان بدون قبعة كعادتها ، وقوامها رشيق أنيق كالعهد به ، وإلى

جانبها فتى نحيل يضارعها فى الطول : فتى وسيم ذو بشرة زيتونية .. فتى عربى !

وفرح قلبه بمرأى حفيده ، وتطلعت ماريان إلى أعلى وراءه، فلوحت له بيدها ، وقالت للفتى شيئا ما ، فنظر حيث أشارت له أمه ، ثم لم يلبث بعد لحظة أن ابتسم على استحياء ولوح بيده لجده .

واشتد تزاحم الناس وتدافعهم بعد ذلك فابتلعهما ذلك المد، وانقضت فترة طويلة قبل أن يبرزا إلى البهو الرئيسى للمطار . وخيل إلى ماريان وهى تملأ عينيها من أبيها أنه لم يزل على نحافته وانتصاب قامته المعهودين فى أبناء الإنجليز ، ولم يطرأ عليه تغير يذكر سوى اشتعال رأسه شيبا وزحف السن إلى محياه . ولكنها قالت له فى حماسة وهى تعانقه فى غمرة السعادة باللقاء :

ـ أنت كما أنت .. لم تتغير قيد أنملة !

وضحك ، وإن لم تخدعه كلماتها . فهى أيضا قد تغيرت . ولم يفته إدراك ذلك رغم نحافتها ورشاقتها . فها هو الشيب قد دب إلى شعرها الداكن ، وهذه خطوط قد ارتسمت هنا وهناك على محياها ، فهى لم تعد تلك المرأة الفينانة فى باكورة الثلاثين ، بل امرأة فى أواسط الأربعين . ولا عجب ! فإحدى عشرة سنة ليست بالفترة القصيرة فى عمر امرأة .. ولا سيما إذا كانت تلك المرأة قد عانت ألوان الويل والعذاب.

وابتسم روبرت ملبى لأنطون ، وخاطبه بالعربية ، قائلا :

ـ إذن فأنت ابن صديقى بطرس منصور !

فابتسم الفتى بارتباك ، وقال باستحياء :

ـ إنى أعرف الإنجليزية أيضا . وفى وسعك أن تكلمنى بها .

ـ أعرف هذا . ولكنى أحب أن نتكلم العربية بين الحين والحين ، فإنى أحب وقع حروفها على أذنى . ولى أمد طويل لم أسمع أحدا يتحدث بها ..

وسألت ماريان أباها أين أمها ، فقال لها إنها لم تستطع التحلل من ارتباطها باحدى لجانها وجميعاتها الكثيرة ، وأنها ستكون فى البيت عندما يصلون إلى هناك . وسألهما بعد ذلك عن رحلتهما ، فقالت ماريان : « لقد كان الجو دافئا جدا فى أريحا عندما غادرناها . وكان الطيران مملا » .

ـ وهل راقت الرحلة أنطون ؟

ونظر كلاهما صوب أنطون الذى قال : « كانت لا بأس بها » ، فقالت ماريان وهى تحاول عبثا أن تخفى تقطيبها بابتسامها :

ـ لم يكن راغبا فى المجىء .

فقال ملبى : « لست الومه على هذا » ، ثم وضع الرجل يده برفق على كتف الصبى ، وقال :

ــ لا تكترث كثيرا لهذا النفى ، فانه لن يطول إلا أعواما معدودة . أما أنا فالنفى بالنسبة لى سيدوم إلى الأبد !

فقالت ماريان بلهجة الشكوى :

ــ إنه لا يرى سببا يدعو لمجيئه إلى هنا على الاطلاق .

ولم يحاول أنطون أن يدلى بأى تعليق . وعندئذ قال ملبى أنه استأجر سيارة تحملهم إلى البيت . وخرج ثلاثتهم من مبنى المطار ووقفوا على الرصيف فى انتظار حضور سيارتهم من الموقف . وكانت الريح باردة ومحملة بالمطر ، فارتجف أنطون كارتجافه عندما برز من باب الطائرة لأول وهلة ففاجأه الجو البارد بعد دفء الطائرة .

أجل ، كان الجو يتسم بالبرودة فى (رام الله) شتاء ، ولكن ليس إلى هذا الحد . فما أشبه البرد هنا فى لندن بضرب خفى من الرطوبة ، يتسرب تحت سطح الجلد ويتغلل حتى العظام . ومن العجيب أن الجو فى صباح هذا اليوم نفسه كان حارا فى أريحا . أما فى عمان عند الظهر فكان شديد الدفء .

واستقلوا سيارتهم أخيرا ، وراح أنطون يتطلع من النافذة إلى امتداد الحظائر الواسعة القبيحة الشكل فى أرجاء المطار، ثم إلى المصانع السابحة فى الأضواء على طول الطريق إلى الضواحى التى تحفل بالفيلات الصغيرة التى تتراجع كل منها عن الطريق العام وراء حاجز صغير من الخضرة !

وكان جده الإنجليزى ينظر إليه ويقول فى نفسه مسرورا :

ــ ياله من فتى أسمر .. تلك السمرة العربية الفاتنة !

وشاعت البهجة فى محيا الصبى بعض الشىء عندما وقع نظره على أول لمحة من مياه نهر التيمز ، وهم يجتازون إحدى قناطره ، وبدا له النهر اللندنى واسعا جدا بالقياس إلى نهر الأردن . وازداد تهلل وجهه عندما تجلت أمام ناظريه الغابات والمروج فى ضوء مقدم السيارة بضاحية (ومبلدن) . فها هنا فراغ ووحشة وخضرة ، وهى أشياء يعرفها جيدا ويأنس إليها .

وسمع صوت جده يقول له :

ــ لولا الظلام لاستطعت أن ترى عند حافة هذا المتنزه العام بناء المدرسة التى ستدخلها .

وارسل أنطون بصره يحاول أن يخترق الظلام فى الاتجاه الذى أوما إليه جده ، واردف ملبى قائلا : « وأنها لمدرسة جيدة ، وستحبها كثيرا » .

وصمت أنطون برهة ثم سأل جده :

ــ أهى المدرسة التى كان أبى يريد أن يلحقنى بها ؟

ــ نعم . وقد طلب إلى منذ سنوات أن أسجل اسمك فيها كى أحجز لك مكانا . وكان مسرورا جدا لذهابك يوما ما إلى المدرسة التى درست فيها أنا ..

وأسرعت ماريان تقول : « وأنا أيضا راقتنى الفكرة كثيرا » .

واستطرد ملبى :

ـ وهى مدرسة نهارية . وسيكون فى مقدورك أن تعيش فى البيت معنا . فها نحن أولاء . وهـذا الباب الأزرق باب بيتنـا .

ودهش أنطون لصغر حجم بيت جديه . فهو لا يكاد يزيد شيئا على حجم الأكواخ التى كان يقيم بها الفلاحون فى ضيعة والده باللد ! ورأى على مدخل البيت من الخارج مصباحا معلقا وظلة يعرش فوقها نوع من الكرم . واستطاعت عينه أن تميز فى ظلام الحديقة الصغيرة أشجار الورد .

اما أمه فصاحت بحبور وهى تترجل من السيارة :

ـ ياله من بيت صغير عزيز ! لا عجب أن نفتنـا به أنت وأمى ! وهو يطل أيضا على المتنزه العام مباشرة . فكأنكما فعلا وسط الريف ! وها هى ماما !

واقبلت سيدة أنيقة شهباء الشعر تخترق الممر بخطـوات سريعة ، وتكرر العناق والتقبيل والترحيب على نحو ما حدث فى المطار ، وقبلت الجدة أنطون وضمته إلى صدرهـا ضما شديدا ، وأخذت تصيح به :

ـ لكم غدوت فارع الطول ، ولم تكن سوى طفل يدرج على الأرض عندما رأيتك فى آخر مرة !

وظلت تحملق فيه بانتشاء أورثه ارتباكا . وذكره منظرها بمنظر طائر يعرفـه ، فعيناهـا ثاقبتـان كعينى الطـائر وحركاتها سريعة كحركات الطيور ، وفيها شىء يذكره بالمنقار

وحركته . وعقدت أخيرا ذراعها بذراعه ودخلا البيت ، فداخله إحساس بعدم الارتياح ، لأنه شعر بها وكأنها ـ على هـذه الوتيرة ـ قد وضعت يدها واستولت عليه !

والواقع أن وجود حفيدها تحت سقفها كان يعنى الشىء الكثير فى نظر الزبيث ملبى . وكانت تعتقد فى قرارة نفسهـا أن ماريان لو كانت غلاما لتغير نهج حياتها كثيرا . ولقد كان وليدها الأول غلاما ، بيد أنه مات فى باكورة طفولته . والطفل الذى تمنت أن يملأ الفراغ الذى خلفه الغـلام الراحل جاء أنثى ... وصارت الأنثى ـ ماريان ـ ابنة أبيها . ولم يكن فى ذلك ضير ، لأن روبرت ملبى رجل متزن ، ولكنه جعـل حياتها خاوية . وما أكثر ما منيت به من خيبة الأمل . ولكم حاولت أن تتحمل تلك الصدمات بقلب مؤمن ، ولكن ضعفها كان يغلب عليها ، ويرين عليها من ذلك الم وشعور بالضياع والغبن .

لقد خيل إليها فى وقت ما انهـا أقدمت على حيـاة كلهـا رومانسية ومغامرة ، حين تزوجت من روبرت ملبى ومضـت معه إلى الأراضى المقدسة كى تكون عونا له فى إدارة مدرسة للغلمان العرب المكفوفين ... ولقد أحبت كثيرا البيت الذى سكناه فى يافا ، ولكنها لم تحب يافا نفسهـا . وكانت ذروة املها فى الحياة بفلسـطين أن تنتقل يوما ما إلى القدس .. وكان شعورها الدينى المتحمس يجعلها تنظر بوله وهيام إلى كل شجرة زيتون تراها على جانب التل ، على أمل أن تكون عين السيد المسيح قد وقعت على تلك الشجرة ذاتها فى مدة

حياته هناك . ولكن روبرت ملبى كان يهدم لهـا آمالها تلك بقوله أن ذلك غير مرجح ، لأن أشجار الزيتون لا تعمر كل تلك القرون العشرين !

وكانت تقول فى نفسها أن روبرت ملبى رقيق الحاشية جدا ، طيب القلب بمعنى الكلمة ، ومع هذا ففى مقدوره أحيانا أن يكون قاسيا جارحا . بل إنه كان فى الواقع أول صدمة وأول خيبة أمل منيت بها . فهو ابن رجل من رجال الدين ، وفى أسرته كثير من رجال الإرساليات المنتشرين فى العالم ، ولكنه لم يكن صادق الإيمان بالمسيحية . لأن اطلاعه العلمى جعله ينظر نظرة شك إلى كثير من المواقع التى يسميها الناس اماكن مقدسة فى فلسطين ، وقد بلغ به شكه أنه نعت الكثير من تلك المعتقدات بأنها « هراء » . أما هى فكانت على العكس منه ، تواقة للانتقال إلى القدس أو بيت لحم ، حيث المزارات التى يقدسها المسيحيون المخلصون . أما روبرت ، فكان يحب (يافا) ويفضلها على كل مدينة أخرى فى فلسطين ، لا لشىء إلا لأنها مدينة إسلامية خالصة . أو على حد تعبيره هو لأنها مدينة عربية خالصة .

وأنها لتعتقد فى قرارة نفسها انه لولا إقامتهما فى مدينة يافا لما انغمس روبرت على هذا النحو فى الحركة الوطنية العربية بحماسة بالغة سافرة ، ولما ترتب على ذلك استدعاؤهما إلى لندن . وكذلك لولا إقامتهما فى يافا لما أتيح لابنتهما الوحيدة أن تلتقى بـ بطرس منصور !

وليس معنى هذا أن الزبيث كانت تضمر شعورا عدائيا نحو بطرس منصور ، فهو فى نظرها رجل ظريف ومسيحى لا غبار عليه سوى انه أرثوذكسى ، فى حين أن آل ملبى من غلاة الانجليكان . ثم أن بطرس منصور فى سن والد ماريان . وانه لمن المحرج بلاشك أن يكون زوج البنت فى سن حماه ! وقد أصر هذا الزوج العربى المسيحى على أن يتم عقد القران فى الكنيسة الأرثوذكسية . وكذلك تمت معمودية انطون فى تلك الكنيسة ايضا ، وهذه كلها صدمات أورثت الزبيث خيبة الأمل .

وجاءت بعد ذلك خيبة أمل لا شك فيها أيضا ، وهى العودة الاضطرارية ، والإقامة فى انجلترا مرة أخرى ، ومعاناة برودة الشتاء القاسية هناك . هذا بالإضافة إلى معركة بريطانيا المحطمة للأعصاب ، ليل نهار . وازداد شعور الزبيث بخيبة الأمل حينما رفض روبرت أن يصحبها إلى الكنيسة يوم الأحد ، كما رفض فى أيام الأسبوع أن يبدى اهتماما بنشاطها الخيرى والاجتماعى .

ولم يكن من عادة الزبيث أن تشكو أو تنتقد ، لأنها ربيت على تقبل الأمر الواقع فى صبر وجلد . ثم أن روبرت رجل طيب فى أعماق سريرته ، وابنتهما الوحيدة ماريان شبت ذكية كأبيها وطيبة القلب مثله . وكانت مثله ايضا فى محبتها للعرب . ولئن كانت أقرب بعواطفها إلى أبيها منها إلى أمها فتلك هى سنة الطبيعة التى لا حيلة فيها . كما أن إرادة الله هى التى شاءت أن تحرم الزبيث من الولد الذى كان حريا أن

يتعلق قلبه بها . وليس لامرأة مؤمنة مثلهـا أن تناقش إرادة الله . ولذا حاولت على الدوام ألا تسمح للمراره بالتسرب إلى أغوار سريرتها ، وأن تجعل حياتها نافعة لنفسها وللناس ، وأن تنظر دائما بعين الرضى والشكر إلى النعم الكثيرة التى أفاضها الله عليها .

ولم تتمالك الزبيث نفسها ـ عندما وصلت أنباء وفاة بطرس منصور فجأة ـ من الشعور شعورا مختلطا مزدوجا متناقضا : بالرثاء لـ ماريان ، وبالأمل المشبوب فى أن تسعد هى أخيرا بعودة وحيدتها إلى إنجلترا مع الغلام ، فيتسنى لها أن تعرف حفيدها وأن تجد فيه بديلا من ابنهـا الذى حرمت منه قبل الأوان .

وأبرق روبرت ثم كتب تفصيلا بالبريد يستحث ابنته على الحضور إلى إنجلترا . وردت عليه ماريان بأن ذلك هو رأيها أيضا ، وأنها ستأتى ومعها أنطون بمجرد الفراغ من إجراءات نقل ملكية ضيعة أريحا إلى خليل داود ، وتسوية جميع التفصيلات المترتبة على حصر التركة . ولم تكن الزبيث تعلق أملا كبيرا على جو التقارب الحميم بينهـا وبين ماريان . بل كانت تتوقع أن يكون التقاؤهمـا أشبه بالتقـاء الغرباء . أما تعويلها كله فكان على ذلك الحفيد الصغير أنطون ، وعلى أن تنشأ بينهـا وبينه صلة مودة تتجـاوز كل ما كان بينهـا وبين ابنتها . وأنها لترى فيمـا حولهـا من البيوت أطفـالا كثيرين يرتبطون بأجدادهم أكثر من ارتباطهم بآبائهم وأمهاتهم . ولذا كان شوق الزبيث إلى حفيدهـا العربى أشبه بحنين

الأحشاء . وهى لا تجد غضاضة فى أن يكون حفيدها عربيا . وإن كانت تؤمل فى قرارة نفسها أن يأتى اليـوم الذى تختفى فيه تلك اللمحات العربية لتحل محلها لمحـات مكتسبة من الإقامة المستمرة فى جو انجلترا . سيما بعد أن ينخرط أنطون فى سلك المدرسة العامة . وسيساعده على ذلك بلا شك ما ورثه عن أمه من عينين زرقاوين . وحاولت أن تغالط نفسها فى لون بشرته الزيتونى ، وامتلاء شفتيه ، وقوة أنفه ، ذلك الأنف الذى ورثه عن آل منصور .

إنه الحب من أول نظرة . فقد كان تأثير الغلام على جدته صاعقا ، بوسامته وقامته . وأنه لحفيد تفخر به أى جدة . وقد صار غاية أملها الآن أن يشعر الغلام لها بشىء ولو قليل من المعزة والمودة ، فيعوضها هذا القليل عن كثير جـدا مما تشعر أنها حرمت منـه !

* * *

أما ماريان فقد وجدت ـ بعد تلك الغيبة الطويلة جدا عن انجلترا ـ أن من العسير عليها أن تتأقلم بالحياة الإنجليزية والمناخ الإنجليزى ، فجعلت ترتجف ارتجافا غير قليل فى أيام الخريف الرطبة ، مع أن والديها ظلا يؤكدان لها أن الجو فى خريف تلك السنة معتدل جدا . وكانت أمها تقول عاتبة :

ـ لندن ليست بطبيعة الحال مثل أريحا ! ولكنهـا ليست أشد برودة من رام الله أو القدس فى مثـل هـذا الأوان من العام .

ولم تكن هناك جدوى من تذكيرها بأن البــرد فى رام الله أو القدس برد جبلى جاف يبعث العافية فى البدن ، أما هــذا البرد اللندنى فرطب يتسلل إلى النخاع . وكانت تنصح ابنتها على الدوام بالخروج للسير السريع الناشط فى المتنزه العام ، باعتبار ذلك السير هو الوسيلة الفعــالة لتنشــيط الدورة الدموية والتغلب على آثار البرد القارس .

ولم تكن الزبيث تجهل أن صدمة ماريان بوفاة بطرس من أشد العوامل تأثيرا فى هبوط روحها المعنوية وضعف مقاومتها للحالة الجوية ، فكانت تردف : « ولكنك لن تلبثى أن تتغلبى على هذه الصدمة . فمن رحمة الله بنا جميعا أننا نحن البشر نتغلب على كل متاعبنا بفعل الزمن » .

وكانت لهجة الأم رقيقة وصادرة عن إحســاس صــادق بمصيبة ابنتها ، ولكن التعبير لم يكن يواتى الزبيث بسهولة ، لأنها فقدت منذ زمن طويل القدرة على التعبير عن عواطفها وعطفها وإعزازها ، لأن روبرت كان قد قتل ذلك كله لديهــا منذ سنوات طوال !

وكانت ماريان تعرف ما تضمره لهــا أمهــا من العطف ، ولكنها فى الوقت نفسه تدرك أنه من المستحيل على تلك الأم ان تفهم إحساسها ، لأنها لم تجــرب قط فى حياتهــا الحب المشبوب ، ولم ينزل بســاحتها ذلك الحرمان الموجع الذى لا يستطيع إحداثه فى حياة المرء إلا الموت . اجل إن فقــدان ذلك الطفل — الذى مات فى الأسابيع الأولى من عمره — ربما كان موجعا لقلب الزبيث ، ولكنه لا يمكن ان يقــارن بذلك

الفقدان الفاجع لشخص كامل النمو قريب إلى النفس بعــد معاشرة دامت أمدا طويلا من الزمن .

إن أربعة عشر عاما من الحياة الزوجية يمكن أن تعتبر فى نظر بعض الناس فترة قصيرة . والحقيقة انه لولا النكبــة الفلسطينية لامتدت هــذه الحيــاة عشر سنوات أخرى على الأقل . وليس صــحيحا على الإطــلاق أن كل شىء يمكن أن تذهب الأيام المتوالية بلذعته ومرارته . فبطرس لم تستطع الأيام المتواليــة أن تنسيه بيته المغصــوب ووطنه المسلوب وكرامته القومية والإنسانية التى داسها اليهود بالأقدام .

ولم يستطع بطرس ان ينسى طعم الهزيمة ، وطعم المهانة ، وضياع الشخصية القومية . ولم يستطع أن ينسى — بمرور الزمن — أنه فلسطينى ، ولم يستطع فى أى وقت من الأوقات أن يدعو نفسه أردنيا . وفى النهاية غلبه القهر على أمره ، ومات كسير القلب محطم الروح . وكان شقيقه فريد على حق عندما قال وهو يذرف الدموع بجانب جثمانه :

— لقد قتلك اليهود يا أخى . قتلوك بالغم والتشتيت وعار الهزيمة !

اجل ، لم يكن من اليسير على ماريان — فى جو الخريف الإنجليزى القاسى — أن تتأقلم جسدا وروحا وهى تتمشى فى متنزه (ومبلدن) مع أبيها أو مع أنطون أو بمفردها تماما . كانت الذكريات الحزينة تهاجمها على الدوام ، فلابد لها من العثور على شىء تشغل به وقتها ، كى تنسى خمائل البرتقال

وأشجار السرو وشمس أريحا الحارة ، مثلما نسيت (اللد) من قبل ... ينبغى بأى شكل من الأشكال أن تتعلم كيف تعيش بدون بطرس . بطرس الذى كان لها زوجا وأبا وحبيبا وصديقا مدى أربعة عشر عاما . بطرس الذى عاشت فى كنفه، والذى تعلقت به فى شغف لا مزيد عليه وهى شابة ، ثم تعلمت بمرور الزمن أن تتعلق به تعلق الشكر وعرفان الجميل وهى فى أواسط العمر .

إن عليها الآن أن تعلم نفسها بنفسها كيف تعيش فى أعماق وحدتها ، تلك الوحدة الحميمة التى لا يستطيع حتى أبوها ، صديق بطرس وشبيهه فى خلائقه ، أن يتغلغل إلى قرارتها .

ذلك كله ثقيل الوقع على نفسها ، مثلما كان ثقيل الوقع على نفس أنطون أن يفقد أباه الذى يعتز به ويحبه ، وأن يجد نفسه ـ وهو العربى المتحمس لعروبته ـ رهين المنفى فى إنجلترا ، مهما تحدثوا إليه عن جمالها وما تقدمه له من فرص التعليم والتثقيف .

ستظل إنجلترا ـ لأنطون ولأمه على السواء ـ أرض المنفى ، ماداموا بعيدين عن الوطن الحقيقى .. عن فلسطين !

— ٢ —

كانت السنة الأولى بطولها ـ بالنسبة لأنطون ـ فترة من الحيرة ، والتجارب الجديدة ، والمناظر غير المألوفة . وكثيرا ما دهمته هذه الأحوال الطارئة وأفقدته زمامه ، فلم يكن يجد ملاذا له سوى الحديث بينه وبين نفسه ، متوجها بنجواه إلى صديقه وليد . ومع أنه كان يسطر إلى وليد صفحات لا تحصى فى ذهنه ، إلا أن كل محاولة لتدوين جزء ولو يسير من هذه الخواطر على الورق كان أقوى من طاقة احتماله ، فلم يستطع أن يرسل الى صاحبه سوى بطاقات بريد ملونة عليها صور تمثل برج لندن ، وميدان الطرف الأغر بحمائمه المشهورة ، وسيرك بيكاديللى ، ومتنزه (ومبلدن) بطاحونة الهواء المشهورة ، والكنيسة التى يذهب إليها يوم الأحد مع جدته . وتطورت هذه البطاقات فيما بعد فحملت إلى وليد نسخا من الصور المشهورة التى يحفل بها المتحف الأهلى للفنون .

وكان وليد يدرس كل هذه البطاقات البريدية بعناية واهتمام ، ويحتفظ بها بين صفحات كتبه وكراساته مسرورا بها ، ولكنه لم يكتب إلى صديقه سطرا واحدا ، مع أن ذهنه أيضا كان حافلا بالخواطر والأحاديث التى يبثها صاحبه ، فى نجوة من الناس ، كلما خلا إلى نفسه !

ولم يكن مكان أنطون فى المدرسة مهيئا لاستقباله قبل الفصل الدراسى الثانى فى شهر يناير . وفى الشهور التى سبقت ذلك الموعد بذلت ماريان قصارى جهدها كى تعرفه

بمعالم لندن ، التى بدت لأنطون مترامية الأرجاء بصورة لا يصدقها العقل ، فكأنما هى جملة مدن كبيرة تصب فى موضع واحد بحيث يتداخل بعضها فى بعض .

وكان يخيل إليه — حين ينظر إلى لندن من فوق قمة إحدى السيارات العامة — انها تمتد امتدادا لامتناهيا ، كامتداد الصحراء . بيد أنها والصحراء على طرفى نقيض ، فلندن تضج بالحياة والحركة والضوضاء ، والصحراء يرين عليها الصمت والخلاء . وكانت أكبر مدينة رآها من قبل هى اللد ، التى لا يزيد عدد سكانها على خمسة عشر ألفا . أما رام الله فلم تكن حينئذ أكبر من قرية كبيرة إلا بمقدار غير محسوس . وأما أريحا فلا تزيد فى حجم سكانها على شارع رئيسى واحد .

وأما القدس القديمة ، بأزقتها التى تموج بالمارة والحمير والسلع ، فشىء آخر . ولكنها لا تضاهى فى حركة مرورها الدائبة مدينة لندن ، بما فيها من سيارات خاصة وسيارات أجرة وسيارات عامة ضخمة عالية حمراء . والناس جميعا فى هذه العاصمة العجيبة يرتدون الثياب القاتمة ، بل إن الأبنية ذاتها كانت قاتمة . والسماء من فوق الناس والأبنية قاتمة أيضا . والسيارات الكبيرة معظمها أمريكية ، ولكن عددها بدا له قليلا جدا بالقياس إلى السيارات الإنجليزية الكثيرة العدد ، الصغيرة الحجم .

وقد أثار اهتمامه كوبرى (برج لندن) ، وكان من حسن حظه أن يراهم يفتحون ذلك الكوبرى العملاق لتمر من تحته سفينة كبيرة عالية . ولفت نظره اتساع نهر التيمز ، وشدة قذارته ، فهو لا يستخدم للرى أو الشرب بل تأتى أهميته

الكبرى من تلك السفن الضخمة التى تمخره قادمة من جميع أرجاء العالم .

وتركت زيارة أنطون لبرج لندن أثرا فى نفسه ، فاشترى نخبة من بطاقات البريد التى تصور نفائس ذلك البرج ليرسلها تباعا إلى وليد . أما كنيسة القديس بولس فذكرته من بعيد بقبة الصخرة فى القدس . وذات يوم ، وهو متجه إلى قلب لندن بالقطار ، لمح من النافذة مسجدا هو أحد مسجدى لندن الكبيرين . وقد جعله منظر المسجد يزداد إيناسا بالمدينة الكبيرة ، ففيها شىء من وطنه الأصلى . وقد ذكرت له جدته أيضا أن بها كنيسة أرثوذكسية . ومع هذا ظل حنينه إلى فلسطين أقوى من مغريات المدينة الكبرى على الدوام . وظلت رائحة « الفلافل » تداعب أنفه ، وتذكره بالحوانيت الصغيرة المنبثة فى شوارع وطنه وحواريه ، كلما أرخى المساء سدوله .

حتى أريحا بجوها الحار وصحرائها المحرقة وبحرها الميت ، كانت تداعب مخيلته فيشتد حنينه إليها ، ويتمثل له أبوه جالسا فى الشرفة ، واضعا كفيه فوق مقبض عصاه الفضى ، تلك العصا التى كانت الشىء الوحيد الباقى له من ثروته الكبيرة فى اللد . ولكن أنطون لم يكن يتذكر اللد بمثل ذلك الحنين ، لأنه لا يستطيع أن يتذكرها إلا مختلطة أشد اختلاط وأعنفه بالرعب والمخاوف . ولذا يحس فى أعماق نفسه بأن العودة إلى اللد فى حكم المستحيلة ، ولكن جده يقول

له إن المستحيل كلمة لا معنى لها ، وأن وطن الفلسطينيين لابد أن يعود يوما ما إلى أهل فلسطين .

* * *

قبل دخول المدرسة ببضعة أسابيع ، شرع أنطون فى العمل تحت إشراف مؤدب خاص ، كى يتسنى له الانتظام فى المدرسة الجديدة ابتداء من شهر يناير . وكان فى كل صباح يعبر المتنزه العام مع جده إلى بيت كبير عتيق يضم عددا من المكفوفين . وكان فريق منهم مصابا بالصمم أيضا . فهواية جده الآن ، وقد تقدمت به السن ، أن يساعد فى الترفيه عن أولئك الناس والحديث إليهم . وقد تعلم أنطون منه كيف يخاطب الصم بلمسات يدويه مرهفة . وكثيرا ما حدث روبرت ملبى حفيده عن المدرسة التى كان يديرها فى يافا ، وكانت تضم المكفوفين من المسلمين والمسيحيين واليهود ، على قدم المساواة .

وفى تلك النزهات أيضا كان روبرت يحدث حفيده عن الحركات الوطنية العربية فى فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية ، وكيف نكث الإنجليز وعودهم للعرب بأن يمنحوهم الاستقلال ، عندما حاربوا الأتراك فى فترة الحرب العالمية الأولى . وكيف أن قصة إنجلترا مع العرب هى قصة الخيانة والخديعة على طول الخط . فأيقن أنطون أن حقيقة مأساة شعبه الفلسطينى — التى أدت إلى قتل أبيه وقتل مئات الألوف من مواطنيه — إنما ترجع أسبابها الحقيقية إلى ذلك الموقف الغادر الذى وقفه الحكام الإنجليز من العرب عموما ، ومن الفلسطينيين على وجه الخصوص .

ولكم تعلقت روح أنطون بتلك النزهات مع جده — فما أشد ما كان يذكره بأبيه — فازداد شغفا بذلك العجوز المستقيم النفس النزيه التفكير . ولا عجب إذن أن يكون شعوره نحو جدته أقل حرارة من شعوره نحو جده بكثير . إنه يأنس إلى صحبتها — ما فى ذلك شك — ولكن ذلك الأنس ليس صادرا عن تعلق حقيقى ، بل عن عدم مبالاة ! فهو يذهب معها صباح كل يوم أحد إلى الكنيسة ، ويجد راحة نفسية فى جو تلك الكنيسة الإنجليزية ، وهو أقل عتمة بكثير من جو الكنيسة الأرثوذكسية الصغيرة فى أريحا . وقد أدهشه فى بداية الأمر أن يجد الرجال والنساء يجلسون متجاورين ، لأن الناس فى لندن لا يعرفون الفصل بين الجنسين . وكانت نفسه تحن بين الفينة والفينة إلى سماع الألفاظ العربية التى تردد فى كنيسة أريحا ، عندما يتلو القسيس الصلاة أو يردد الشمامسة التراتيل . ولكنه لم يكن يحدث أحدا بحنينه إلى وطنه . حتى ولا جده الحبيب الذى يحب ذلك الوطن . فقد أبقى لنفسه حلمه المشترك مع وليد : حلم طريق بئر سبع ، إلى أن يحين الوقت ، فتنتهى فترة هذا النفى ويعود إلى تلك الأرض التى كانت يوما ما جزءا من فلسطين !

* * *

وأخيرا ، فى شهر ديسمبر كتب إلى وليد ، يقول :

— يا عزيزى وليد ، أرجو أن تكون قد وصلتك البطاقات البريدية التى أرسلتها إليك . ويؤسفنى أنى لم أستطع إرسال خطاب إليك قبل هذا ، لأنى كنت مختلط التفكير بسبب

الحياة الجديدة من جميع الوجوه التى تحيط بى هنا . لقد أخذونى لمقابلة ناظر مدرسة « كلية الملك » التى سأنتظم فى صفوفها فى يناير القادم ، وكان الرجل لطيفا جـدا معى ، وحسن الظن بى ، ولكنى سأؤدى امتحانا تحريريا يسمونه امتحان القبول فى هذا الشهر ، فاذا كتب لى النجاح فيه تقدمت للامتحان الشفوى أمام لجنة . وهذا هو النظام المتبع مع جميع المتقدمين للالتحاق بالمدرسة . وجدى واثق أننى سأنجح . وهو شخصيا كان تلميذا بهذه المدرسة نفسها فى سنة ١٩٠٥ . وانا لا أعتقد ان الدراسات ستكون مختلفة كثيرا عن الدراسة بمدرسة الأصدقاء ، ولكنى سأضطر فى الغالب للجد ليل نهار ، مدة ثلاثة أشهر على الأقل ، تحت إشراف مدرس خاص. ولذا قد لا أكتب إليك مرة أخرى قبل مضى مدة طويلة ، ولكن أرجو ان تثق بأننى افكر فيك طول الوقت ، وفيما كنا نفعله معا ونتحدث فيه ونرسم خططه . وأرجو أن تكون أحوالك على ما يرام من جميع الوجوه . وقريبا إن شاء الله سأعود ونستأنف جولاتنا معا . تحياتى إلى فؤاد .

وقد سعد وليد كثيرا بتلقى هذا الخطاب وقرأه عدة مرات ، فى الفصل ، وفى الفناء ، وفى بيت عمه بالليل . ولكنه لم يكتب ردا عليه لأن الرد على الرسائل لم يكن من عادته . وهو متأكد أن صديقه لا ينتظر منه ردا . ويوما ما سيجتمعان بجسديهما وينفذان معا الخطة التى رسمها عمه منير . أما الآن فهى فترة انتظار وترقب واستعداد .

وفى عيد الميلاد تلقى وليد بطاقة بريد تفيد نجاح انطون فى الامتحان التحريرى بتفوق . ورد وليد عليه ببطاقة ملونة

عليها صورة قبة الصخرة المقدسة ، كتب على ظهرها تحياته وتحيات أصحابه .

ومرت فترة طويلة أخرى قبل أن يكتب أنطون إلى وليد . وكانت رسالته هذه المرة طافحة بشكواه من رطوبة جو لندن، ومن قسوة شتاء إنجلترا ، بحيث أصيب أنطون بالبرد ولم تفارقه الرجفة التى لم تنفع فى إيقافها مواقد الفحم فى حجرة جلوس جده الصغيرة . وحدثه بالتفصيل عن مدرسه الخاص « جيرالد جونز » الذى أصيب بشلل الأطفال وهو فى السنة الأخيرة بجامعة اكسفورد ، فانقطعت دراسته وصار يتنقل فى أرجاء البيت والحديقة على مقعد ذى عجلات ، ويقضى وقته كله فى المطالعة ، فلديه مكتبة ضخمة . واظهر مستر جونز اهتماما كبيرا بالشرق الأوسط والبلاد العربية بوجه خاص ، وأبدى عطفا كبيرا على الفلسطينيين . وكان ينوى قبل مرضه أن يزور تلك البلاد بمجرد تخرجه ، ولكن كارثة مرضه قضت على ذلك كله . إلا أنه وجد فى صلته بانطون منهـور فرصة طيبة للحديث عن فلسطين وأحوال أهلها .

ولكم امتلأت نفس مستر جونز بالهلع والاستنكار عندما وصف له أنطون المسيرة الرهيبة من اللد إلى رام الله . واحتقن وجه الرجل الإنجليزى المثقف بالغضب والسخط على تلك القوى الشريرة التى تحالفت ضد هذا الشعب المسالم البرىء .

وشرح له أنطون بعد ذلك رأى صديقه وليد الذى هاجرت أسرته من بئر سبع ، وكيف أنه يؤمن بقدرة الفلسطينيين على

استرداد أوطانهم وديارهم إذا هم نظموا صفوفهم أحسن تنظيم . وكيف أن بعض كبار السن يرون ذلك أمرا شبه مستحيل .. فقال له مستر « جونز » :

ـ وما وجه استحالته يا بنى ؟ لكم شهد التاريخ من إمبراطوريات قامت على البطش والقوة الغاشمة ، ثم هزمتها شعوب عزلاء إلا من قوة الإيمان وسلاح الإصرار والتضحية. ولقد رأينا بأعيننا هذه الإمبراطورية البريطانية تتلاشى بعد بقاء وشموخ ، وكانت الشمس لا تغرب عن أرجائها ـ وإن كان الهنود الوطنيون الظرفاء يقولون إن الشمس لم تكن تغرب عن الإمبراطورية لأن الله لا يثق بالانجليز لو أسدل عليهم ستار الليل!! ـ ومع هذا غربت شمس تلك الإمبراطورية العتيدة ، وتحررت الشعوب التى كانت ترسف فى قيودها . والرايخ الثالث ـ رايخ هتلر ـ الذى كان « الفوهرر » يقدر له البقاء ألف سنة على الأقل ، أين هو الآن ؟ لقد انتهى وصار أثرا بعد عين !.. فكيف يداخل أحد الشك فى زوال دولة ملفقة كإسرائيل ، بحيث يتحرر فلسطين ؟ إن الظلم يقضى على نفسه ، والشر يأكل بعضه بعضا ، لأن عوامل الفساد والفناء فى صميم تكوينه . هذا هو حكم التاريخ ، وهذا هو تياره الحتمى الذى لا محيص عنه .

ولم يسطر انطون هذه الأحاديث على الورق ، ولم يبعث بها فى رسائل إلى وليد ، ولكنه سجلها فى قلبه ، وادخرها ليوم يلتقى فيه بصاحبه على أرض الوطن.. للقيام بعمل مشترك.

* * *

ولن ينسى أنطون ـ ما عاش ـ حادثا وقع له فى أسبوع عيد الميلاد ورأس السنة . فقد أخذه جداه إلى بضعة بيوت إنجليزية صديقة فى تلك الفترة ، ليشهد جانبا بارزا من الحياة الاجتماعية الإنجليزية . وكان الناس فى تلك السهرات الصغيرة يبدون اهتماما مهذبا به ، ويقدمون له أشربة حلوة ، ويسألونه عن دراسته وعن بلاده . وهل بها مدارس إنجليزية على مستوى حسن ، ومنهم من كان يطلب إليه أن يتحدث بالعربية كى يسمع تلك اللغة الغريبة !

وفى إحدى تلك السهرات أقبلت عليه امرأة بدينة ، حمراء الوجه ، يملأ النمش الكبير محياها ، وقالت له :

ـ لقد سمعت أنك من اللاجئين . ولذا أردت أن أشد على يدك محيية ، لأننى كنت دائما ذات ميول موالية لليهود ، وانتهز كل فرصة للدفاع عنهم وتأييد حقوقهم .. فقد كانت جدة أمى يهودية ..

وارتبك انطون أمام ابتسامة السيدة وأدرك التباس الأمر عليها ، فقال :

ـ أنا آسف يا سيدتى .. يعنى .. انا لست يهوديا . بل مسيحى .

وإذا بالاشراق والتهلل يختفيان من وجه المراة البدينة ، كأنما ابتلعته الأرض فجأة ، وسألته بحدة :

ـ ألست لاجئا ..؟

ـ بلى . نحن لاجئون ، أعنى أسرتى لاجئة .. ولكننا لاجئون فلسطينيون . فقد كان أبى فلسطينيا . عربيا !

وراحت المرأة تنظر اليه بامتعاض وفزع ، كانما هوقد قال لها انه من المصابين بالجذام مثلا ..

ــ ماذا تقول ؟! عربى ؟!

وراحت المرأة تنظر إليه بامتعاض وفزع ، كأنما هو قد قال لها إنه من المصابين بالجذام مثلا ..! ثم جذبت ذراع رجل كان يتحدث بقربها إلى فتاة ، وقالت له :

ــ هل سمعت ما قاله هذا الفتى ؟ إنه يقول إنه عربى !؟

وراح الرجل ينقل بصره بينها وبين أنطون ، ثم قال :

ــ وإنه لكذلك فعلا . فهو نصف عربى على الأقل . إنه حفيد روبرت ملبى ، وماريان ملبى كانت متزوجة من فلسطينى عربى .

وابتسم الرجل ابتسامة ودية للغلام ثم التفت إلى الفتاة التى كان يتحدث إليها ، وانتهز أنطون هذه الفرصة وابتعد عن المراة التى ظلت تحدق فيه باستنكار وكأنها رات عفريتا !

ولما روى أنطون هذا الحادث لجده ابتسم الرجل الطيب تلك الابتسامة التى كانت تذكره دائما بابتسامة ابيه ، وقال له :

ــ إنك ستلقى يا بنى الكثير من هذا هنا . فسواد الشعب البريطانى غير المثقف ظل يسمع عن اللاجئين اليهود منذ سنوات طويلة قبل الحرب العالمية . أما اللاجئون العرب فلم يسمع الشعب الإنجليزى عنهم شيئا تقريبا . فاذا قيل أمامهم « هذا لاجىء » ظنوا انه لاجىء يهودى ، وليس لاجئا من العدوان اليهودى !

* * *

وفى عطلة عيد الفصح كتب أنطون خطابا مطولا آخر إلى صديقه وليد يخبره بانتظامه فى المدرسة ، ودخوله التدريب العسكرى كى يتعلم التصويب بالبندقية ، وكيفية استخدام

المدافع الرشاشة المختلفـــة ، واشتراكه فى سباق اختراق الضاحية . وحدثه أيضا عن مدرسه الخاص الذى انتهت مدة عمله معه ، ولكنه يزوره كصديق فى عطلة الأسبوع .. وان مستر جونز يقترح عليه أن يعمل بعد تخرجه فى وكالة إغاثة اللاجئين التى انشأتها الأمم المتحدة . وقد وافق جده على هذه الفكرة ورتب مع ناظر المدرســة إعداده للالتحاق بمدرســة العلوم الاقتصادية التابعة لجامعة لندن للحصول منهــا على دبلوم فى العلوم الاجتماعية ..

وفى هذه الرسالة أيضا ترددت شكوى أنطون من جهــل زملائه بالمدرســة بأحوال فلسطين ، ومعظمهم كانوا يعتبرون كلمة فلسطينى مرادفة لكلمة يهودى ، ويعجبون لوجود عرب فى فلسطين ! وكل ذلك بطبيعة الحال نتيجة للدعاية اليهودية المتلاحقة ..

وأخبر أنطون صديقه بأن روح الزملاء قد بدأت فى التحسن ببطء ، وأنه يأمل فى التغلب على أفكارهم الموروثة ضد العرب بمرور الوقت . وأن امه قد التحقت بعمل منذ بداية العام فى دار للنشر تهتم بأمور الشرق الأوسط ، وتقيم بمسكن فى وسط لندن ، ولا تأتى إلى بيت أبويها إلا فى عطلة الأسبوع . وأنه أحيــانا يذهب إلى مسكنها فى عطلة الأسبوع ليقوما معــا باكتشاف مجاهل لندن ..

ولم ينس أنطون فى النهاية أن يؤكد له مواثيق الصداقة ، وأن اليوم آت لا ريب فيه للعمل معا فى ميدان الكفاح الوطنى ، بعد أن تنتهى فترة هذا « المنفى » .

ــ ٣ ــ

كان الاعتقاد السائد ــ لدى جدى أنطون ووالدته وأساتذته فى المدرسة ــ أنه « تأقلم » و «تكيف» بالجو الإنجليزى والحياة الإنجليزية على أتم وجه ممكن . ولكن « جيرالد جونز » وحده ــ بما كان يعرف عن التأقلم والتكيف بصورة علمية وعملية ــ هو الذى كان يشك كثيرا جدا فى حقيقة ذلك التكيف الرائع المزعوم .

لقد كان أنطون فى ظاهرة أمره فتى « انبساطيا » غير منطو على نفسه ، يشارك فى النشاط المدرسى ولا سيما فى ملاعب المدرسة وفرقها الرياضية بشتى أنواعها ، ويسهم فى التدريب العسكرى بشغف كبير ويبذل جهدا كبيرا فى مناوراته ومبارياته الشاقة ، ويحرص على الابتسام والدماثة وتقبل النكات اللاذعة بصدر رحب ، وكانت معظم نكات رفاقه فى المدرسة تنصب على « الشيوخ » و « الحريم » وحياة القبيلة فى الصحراء !

ولكن إلى جانب هــذا لم يكن أنطون يعتبــر تلك الروح الاجتماعية الشائعة بين الزملاء ذات صــلة ما بالصــداقة الخاصة . فالكل صحاب له ورفاق مرحون ، وهو مرح ودمث مع الجميع ، ولكن ليس له صديق بالمعنى الخاص لتلك الكلمة . وكثيرا ما كان يذهب إلى رحلات ونزهات فى نادى التجديف بالمدرسة .. أو فى نادى الطيران صباح يوم الأحد ، أو يزور زميلا فى بيته يكون قــد أبدى نحوه فهما خاصــا وهو من الطلاب الفقراء الذين يتعلمون بالمجان لتفوقهم ــ على خلاف



المستوى السائد بين التلاميذ وكلهم من أبناء الميسورين ـ ويتناول لديه « الشاى الكبير » . وفى بعض الأحيان كان يزور بيت زميل آخر قريب من بيت جده ليشاهد التليفزيون ، لأن جده لم يقتن ذلك الجهاز المبتكر . وكان اسم هـذا الصديق « مايكل لندلى » . وأحيانا كان يذهب معه لمشاهدة أحد الأفلام « الجبارة » ـ على حد تعبير مايكل ـ فى إحدى دور السينما القريبة من البيت ، ومعظم هذه الأفلام « الجبارة » تدور حول الحرب والمغامرات . ولم تكن هـذه الموضوعات تعنى أنطون كثيرا ، ولكنه كان يذهب مجاملة لزميله ، ولأن الموافقة أسهل عليه من الرفض أو الاعتراض .

أما الأشياء المحببة إليه حقا فهى التنزه سيرا على الأقدام مع جده فى المتنزه العام الكبير ، أو السير بمفرده فى الغـابة وهو يرسل خواطره إلى بعيد ، حيث يصحب «ولبد» فى رحلات ذهنية ووطنية ، ويفكر فى أحلامهما التى يحس أنهـا أصدق وأكثر واقعية من هذا الحاضر الذى يعيش فيه منفيا ، قلبـا وقالبا .. ويتلو تلك النزهات فى المكانة والإيثار نزهاته يوم الأحد مع أمه وزياراتهما للمتاحف الفنية ، وأحاديثه الدسمة المثيرة للذهن والقلب مع معلمه السابق المصاب بشلل الأطفال « جيرالد جونز » .

ولم يدر بخلده طبعا أن « جيرالد جونز » يمكن أن يحل فى قلبه محل صديقه العربى وليد ، لأن جونز كان فى الخامسة والعشرين ، وهى سن تبدو لأنطون كبيرة نسبيا بطبيعـة الحال ، بيد أنه كان يحب تلك الحجرة المبطنة جدرانهـا من

الأرض إلى السقف بالكتب ، فى ذلك البيت الـكبير القبيح الشكل .. ويحب تلك المعاملة السمحة التى يعامله بها أستاذه السابق ، وهى معاملة الند للنـد ، التى تخفف عن كاهله الشعور القاسى بعدم النضـج ، ذلك الشعـور الذى كثيرا ما عانى منه حتى وهو فى صحبة وليد بشخصيته الطاغية .

بل إنه مع جونز يستطيع أن يكون صاحب اليـد العليا ، لأنه يتحدث إليه عن فلسطين وأحوالها ، ويجيب على أسئلة جونز التى يوجهها إليه بطريقة تشـعره بأنه مصدر هـام للمعرفة ، وما أحب ذلك إلى نفس أنطون بعد ساعات الدرس الطويلة التى يتلقى فيها المعلومات من أساتذة يعتبرونه جاهلا على الدوام . ويشعر أمامهم فعلا بأنه جاهل . وشتان ما بين هذا الشعور ، وذلك الشعور الذى يوحيه إليه جونز وهـو يصغى لإجاباته فى تقدير واهتمام .

وكذلك كانت مسز جونز ـ والدة جيرالد جونز الأرملة ـ تعامله بمودة وكأنه رجل ناضج ، وتسأله رأيه فى بعض نوابغ الممثلين الإنجليز الذين يشهد أفلامهم أحيانا ، مثـل « السير جوينس » الممثل والمخرج العبقرى .. وهو إحساس لا توحيه إليه جدته ولا والدته ، فلا عجب إذا ألفى نفسه على سجيته ، واستمتع بشعور بنمو شخصيته لم يتوفر له فى بيتـه ولا فى مدرسته .

إنه فى مدرسته مطالب دائمـا بالتظاهر بالسرور والمرح وسعة الصدر أمام المضايقات والنكات اللاذعة أو السمجة ، حتى لا يقال عنه إنه « انطوائى » . فهو من خوف الانطوائية

فى انطواء يتخذ صورة « الانبساط » .. ولا سيما أن اسمه وسحنته وكل شىء فيه يذكر زملاءه باختلافه عنهم فى المنبت والسلالة والتكوين النفسى والاجتماعى. أما هنا فهو لا يتصنع شيئا ، ولا يحس بحاجته إلى التصنع أو التظاهر .. وعناصر تفرده التى تحسب « عليه » فى المدرسة تحسب « له » هنا فى بيت آل جونز مزية يستحق بسببها الرعاية والاهتمام والتقدير.

ومع هذا كله لم يفض أنطون حتى ولا لجيرالد جونز بحلمه المقدس حول طريق بئر سبع ، طريق العودة ، طريق النضال. فهذا سر بينه وبين وليد ، وليس من حقه أن يبوح به لأحد. فطريق بئر سبع هو رمز عقيدته الوطنية التى لا تقل قداسة لديه عن عقيدته الدينية ..

وهــذا السر المقدس هو الذى يكمن وراء قلقه وعــدم استقراره ، ذلك القلق الذى يختفى تحت سطح ظاهرى من المرح والدماثة . وقد استطاع جونز الشاب المقعد المشدود على مقعده ذى العجلات أن يستشف هذا القلق ويحكم بأن الفتى العربى لم يستطع بعد أن يصل إلى « التأقلم » بالحياة الإنجليزية ، رغم كل هذه الظواهر الخادعة .

إن جونز شخصيا لم يكن يشعر انه على سجيته وهو فى اكسفورد . رغم سمعته بين أقرانه بانه شــاب مرح سليم الطوية . وقد ظل الناس مخدوعين فيه إلى أن حنت به كارثة المرض المقعد ، فحررته أخيرا من تكاليف التظــاهر الخادع إرضاء لمن حوله !

وأن وراء ابتسامة أنطون البريئة المشرقة لكثيرا جدا مما لا يخطر ببال زملائه الإنجليز . فهــذا الفتى البرىء ــ كأنه

شماس فى فرقة المرتلين بالكنيسة ــ قد سمع بأذنيه منذ سنين صرخات العذارى يغتصبهن جنود اليهود .. وصيحات النساء العقيلات المحصنات ينتهك حرمتهن جنــود إسرائيــل !..

ورأى بعينيه رجالا ونساء من مواطنيه يشربون بول بعضهم البعض ، ويتقاتلون على الظفر بقطرة منه !.. شهد بنفســه كيف تجرد الناس من إنسانيتهم تحت وطأة ذلك الاضــطهاد الوحشى فى البرية ، ورأى وجها لوجه ملك الموت وهو يطارد الناس مطاردة رهيبة مفزعة ..!

كل هذا كان جونز يعرفه ، فلم يصدق لحظــة واحــدة أن أنطون يمكن أن ينسى تلك الذكريات المروعة ، أو أن تظاهره المتقن بالاستسلام والانقياد لمشيئة الله يمكن أن يدل على حقيقة حالته النفسية . إن « التأقلم » فى هذه الحالة لا يمكن أن يدل على طبيعة سوية خالية من الشذوذ ، بل هو فى مثل هذه الظروف دليل قاطع على الشذوذ ، وتبلد الإحساس .

ولذا كان جونز واثقا كل الثقة أن أنطون منصور يحن إلى وطنه فلسطين العربى حنينا ملحا لا هوادة فيه .. حنينــا مضاعفا ، لأنه قاسى الانتزاع من جذوره الأصلية فى منبتــه الأول بمدينة اللد ، يوم تلك المسيرة الرهيبــة المشئومة .. ثم قاسى مرة أخرى الانتزاع من وطنــه كله ليعيش فى لندن بجوها القارس وأحوالها الاجتماعية الفكرية التى لا تمت إلى الشرق بصلة ، ولا سيما أن رحيله من أريحا إلى لندن جــاء على اثر فجيعته فى أبيه الذى كان يحبه أشد الحب .

لابد أن يكون المرء أبلها أو معتوها حتى تزايل إحساسه مثل هذه الكوارث المزلزلة بهذه السرعة وهـذا اليسر الذى يتوهمه المخدوعون بمرح الفتى ودماثته . ولكن أنطون منصور فتى ذكى العقل والقلب ، مرهف الحس ، فـلا يمكن إذن أن يكون هذا موقفه الحقيقى . ولابد أن ثمة توترا شديدا تحت هذا القناع التمثيلى المتهلل على الدوام ..

كان هذا رأى جيرالد جونز ، وكان أنطون لا يعرف عن هذا الرأى شيئا ، وكل ما هناك أنه يحس بعدم حاجته إلى التظاهر وهو فى بيت آل جونز .. ولكنه كان يأنس للوحدة أكثر أيضا مما يأنس إلى بيت آل جونز .. لأنه فى وحـدته يستطيع أن يطلق العنان لخواطره ويتصور نفســه فى مروج (رام الله) وروابيها أو فى كنف جبل التجربة عند أريحـا ، فى صحبة صديقه وليد .

وفى اول صيف قضاه بانجلترا بعد انتهاء السنة الدراسية ، كتب إلى وليد ، يقول له :

« لقد حظينا هنا ببضعة أيام من الدفء وصلت فيها درجة الحرارة إلى ٨٠ فهرنهيت ، فلبس الناس نظـارات سوداء وراحوا يقولون : « الا ما أشد هذا الحر ! » .. وعندما أقول لصحابى الإنجليز أن الحرارة فى أريحا فى مثل هذه الأيام تصل إلى حد فظيع جدا حتى أن الذباب يموت من وطأة الحـر ، يظنون اننى أمزح ، ولا يتصـورون حرارة اشـد من ٨٠ فهرنهيت ! » .

وقد انتهزت ماريان فرصة إجازة حصلت عليها من عملها فصحبت أنطون إلى مقاطعة (بريتانى) بفرنسا ، لا لشىء إلا لتتخلص من جو انجلترا وأهلها وتستمتع بمنظر البحر على هواها . وكانت قد صحبت والديها فى فترة طفولتها إلى هذا الموضع عينه أثناء إجازة حصلوا عليها أثناء خدمة أبيها فى فلسطين ، فكانت (سان مالو) بالذات من الأماكن التى ظلت عالقة بذهنها منذ ذلك الحين باعتبارها منتجعا للجمال الطبيعى الأخاذ . وإلى هناك صحبت ابنها مع أنها كانت تعلم سلفا أن أكثر من ثلاثة أرباع مدينة (سان مالو) العتيقة ذات الأسوار قد تهدمت او أحرقت أثناء معركة تحريرها فى سنة ١٩٤٤ . ولكن قيل لها انها جددت بسرعة وان حصون القرن الثانى عشر التاريخية لم تزل على حالها لم يمسسها أذى .

وكانت الرحلة البحرية الليلية إلى هناك مثيرة جدا بالنسبة لأنطون الذى لم يركب باخرة قبل ذلك ، وإنما كانت رحـلاته كلها عبر البحر بالطائرة . وكان تفكيره فى أثناء تلك الرحلة البديعة منصرفا إلى صديقه وليد. أما أمه ماريان فكان تفكيرها منصرفا إلى بطرس منصور ، وهى تتساءل لمـاذا لم يرحلا معا إلى أوربا مثل هذه الرحلة الجميلة التى تتراءى فيها طيــور النورس محمومة صائحة فوق رءوس الركاب ؟ لماذا لم يتجاوزا فى رحلاتهما بيروت عاصمة لبنان ؟ وكان الجواب الطبيعى الذى خطر لها أن رغبتهما لم تتجه هذا الاتجاه ، ولو شاءا لما حال بينهما وبين تلك المتعة شىء. فان بطرسا كان يحب بيروت حبا جما ، فكان يختارها للنزهة والاستجمام كلما نزعت نفسه إلى التغيير . وكانت رغبة بطرس قانونا نافذا على الدوام بالنسبة

لها ، فلم تفكر قط فى مخالفته أو اقتراح شيء غير الذى خطر بباله . ولكن لو أن المقادير أمهلته بضع سنوات أخرى لحضر معها ومع أنطون إلى انجلترا لإتاحة فرصة إتمام التعليم لوحيدهما ، وعندئذ كانت (سان مالو) وما إليها من الاماكن الجميلة فى اوربا حرية أن تفوز باختياره عوضا عن بيروت .. ولكن هذا كله لم يسمح به الزمن لأن « النكبة » حطمت قلب بطرس قبل الأوان ..

ولاحت منها نظرة إلى أنطون وهو واقف بجوارها مستندا إلى سياج الباخرة ، والهواء يعبث بشعره الأسود الغزير ، ونظرة جد واهتمام تتراءى فى عينيه ، فقالت فى نفسها :

— هذا أنطون بن بطرس منصور .. وليس الفتى الذى كان يرتدى منذ أيام قلائل قبعة المدرسة الإنجليزية ولا يكاد المرء يميزه بحال من الأحوال من سائر أبناء الإنجليز أقرانه فى السن . هذا أنطون صديق وليد الذى ذهب معه فى عيد الفصح قبل المنصرم إلى الخليل ، وقد أطلق الآن من أسر الحياة الإنجليزية وشكلياتها وارتد إلى عنصره الأصيل . إنه بعينه أنطون الذى سيعود يوما ما إلى مسقط رأسه وأرض ميعاده ووطن أبيه وأجداده العرب ..

وعندما طلع النهار وخرجا من قمرتهما بالسفينة ليلفيا نفسيهما تحت أسوار (سان مالو) تقريبا ، صاح أنطون فى حبور :

— الا ما أشبهها بمدينة القدس !

— نعم . على نحو ما . ولكن الحياة وراء هذه الأسوار مختلفة تماما عن الحياة التى وراء أسوار القدس . كما أن هذه الأسوار التى تراها أقدم من أسوار القدس بنحو أربعة قرون!

ونزلا فى فندق صغير يقع فى شارع ضيق منحدر يكثر فيه المصطافون إلى درجة الازدحام ، وعلى جانبيه عشرات من حوانيت الفاكهة والخضر ، والمقاهى الصغيرة ، مما ذكره إلى حد ما بجو مدينة القدس القديمة . ولكن ماريان شددت على أنطون كى لا يصرف اهتمامه إلى الشوارع الضيقة ، لانهما لم يأتيا لرؤية الحوانيت والمقاهى والأزقة الداخلية ، بل للتمتع بالبحر وهوائه وأمواجه الزبرجدية .

وأوشك الفتى وأمه أن ينسيا نفسيهما وهما يتطلعان إلى جمال البحر الصافى ، بخضرته الشاحبة ، من فوق تحصينات المدينة التاريخية . والحق أن المنظر من هناك لا يمله المرء ولو قضى فى ذلك ساعات النهار جميعا .

وعندما انخفض مستوى الماء بانحسار المد ، سارا معا إلى الجزيرة الصغيرة التى يواجه فيها البحر الصاخب اللامتناهى ضريح من الجرانيت دفن فيه الكاتب الفرنسى العظيم « شاتوبريان » ، تحف به الأزهار البرية الكثيرة التى يحمل الهواء عبيرها المسكر مع كل نسمة من نسماته ، مختلطا برائحة العشب البحرى المتراكم ..

وعثرا على فجوة بين الصخور بعيدة عن مهب الريح ينمو فيها العشب البرى والأقحوان ، وهناك افترشا الأرض ،

وتنهد أنطون بارتيـاح وهـو يملأ عينيه وصـدره من البحر وهوائه ، وقال :

ـ الا ليتنا لا نعود إلى لندن !

ـ حقا ؟ لقد حسبتك تحب لندن بما لك فيها من اصدقاء ، وزملاء فى المدرسة ، وفرق رياضية ، والمتنزه العام الكبير ..

ـ كل هذا حسن ، ولكننى اشعر باننى لا أنتمى إلى شىء من هذا .

ـ ولكنك يا بنى نصف إنجليزى !

ـ أعلم هذا . ولكنى لم أولد هنـاك . ولم أعش فى تلك الديار قبل هذا العام ..

ـ ولكنك اقل انتماء إلى هذا المكان ـ من أرض فرنسا ـ الذى لا تربطك به ولو آصرة اللغة .

فبادر يرد عليها ، قائلا :

ـ بالعكس ! إن انعدام آصرة اللغة من شأنه أن يجعل الأمر أسهل على نفسى !

ـ لـماذا ؟

ـ لاننى فى هذه الحالة سوف لا أكون مطالبـا بالاختلاط والاندماج الاجتماعى الكلى .. والحقيقة أنى لا أشعر فى جميع الأوقات برغبة فى الاندماج الاجتماعى .

ـ أدرك ماذا تعنى ، ولكن لابد لك من التعليم كما تعلم .

ـ لقد كنت أتعلم على ما يرام وأنا فى (رام الله) !

ـ ولم يكن فى وسعى أن أبقى فى الأردن يا أنطون ، وأبوك نفسه فى الليلة السابقة لوفاته أوصانى أن ..

وتهدج صوتها وراحت تلتمس منديلها فى حقيبة يدها وهى تحاول عبثا رد طوفان الدموع التى انبجست فجأة .. فاستولى على أنطون الندم ، وقال لها :

ـ واها لى ! لقد سببت لك الأسى فى هذه اللحظة الجميلة . أرجوك الا تحزنى وتبتئسى ! إنى على خير حال فى لندن ، وكل ما هناك أنى أشعر بالحنين إلى وطنى أحيانا ، واشتاق إلى وليد . ولـما وجدت نفسى هنا بعيدا عن انجلترا ، تجدد عندى هذا الحنين والشوق ..

ـ أعلم هذا يا ولدى . ولكن تذكر انك ستكون فى الخامسة عشرة من عمرك هذا العام ، وبعد ثلاثة أعوام أخرى ستعود إلى الأردن إن شاء الله ! وهى ليست بالمدة الطويلة ، أليس كذلك ؟

ـ كلا فى الواقع ..

ونهض قائما على قدميه ومد يده إلى أمـه ليعينهـا على النهوض ، قائلا :

ـ هيا بنا نتم جولتنا حول الجزيرة ثم نعود إلى التحصينات لنحظى هناك بتناول « الجيلاتى » فى شرفة المقهى تحت المظلات الكبيرة !

وانجابت أمام هبات هواء البحر الطلقة سحابة الأسى ، ولم تبق أمامها سوى صفحة الحاضر البهيج ..

— ٤ —

كان مقسوما لرحلة (سان مالو) ان تظل ذكرى مفردة فى ذهن أنطون وأمه ، لأنها كانت الرحلة الوحيدة لهما فى العطلات . فقد قرر « روبرت ملبى » أن غلاما فى الخامسة عشره لا ينبغى أن يقضى عطلاته ملازما لأمه على هذا النحو ، ووافقت ماريان أباها على مضض ..

وتغير بالفعل منوال حياتهما . فعندما حل الصيف التالى كانت ماريان شديدة الانهماك فى عملها ، أما أنطون فذهب مع رفاقه فى التدريب العسكرى إلى معسكر صيفى ابتداء من شهر يوليو ، وكان قد حصل قبل ذلك على « شريط » صار مصدر اعتزازه وزهوه ، وجعله يشعر بأنه أكبر سنا بكثير من الغلام الذى ذهب منذ عام واحد إلى (سان مالو) فى صحبة والدته .
لقد صار أنطون بطرس منصور « أومباشيا » ، ثم لم يلبث أن صار « جاويشا » ، الأمر الذى جعله يبرز صدره إلى الأمام ويبدو أكثر ثقة بنفسه فى كسوته الصفراء !.. وقد ساعده ذلك على عدم اللجوء إلى التظاهر كى يكسب تقدير رفاقه ، لأنه صار الآن « شيئا مذكورا » بغير حاجة إلى استرضاء أحد .

أما ماريان فاندمجت فى قسم التحرير بصحيفة الشرق الأوسط التى تعمل بها ، واستفادوا من معرفتها للغة العربية فبعثوا بها فى الصيف إلى بيروت لجمع معلومات معينة ، ثم طارت من هناك إلى الكويت أثناء وجود أنطون فى معسكر التدريب . ومن الشرق كتبت إلى أمها تخبرها أنها سوف

لا تعود إلى انجلترا إلا بعد عيد الميلاد ، وطلبت منها السماح لأنطون بالذهاب إلى سويسرا فى الشتاء للتمتع بالانزلاق على الجليد مع زميله لندلى فى عطلة عيد الميلاد ورأس السنة .

وبطبيعة الحال رحب أنطون بهذه الفكرة ترحيبا كبيرا ، لأنه كان زاهدا جدا فى قضاء عيد الميلاد فى إنجلترا بعد تجربته الأولى . وفى الوقت نفسه كان يحب « لندلى » كثيرا ـ وهو أكبر منه سنا بعض الشىء ـ لأنه يشاركه الاهتمام بمعسكرات التدريب ويذهب معه فى أيام الصيف فى ساعة مبكرة للسباحة قبل موعد الدراسة فى بحيرة صغيرة محاطة بالأشجار الكثيفة قرب طاحونة الهواء فى المتنزه العام . والماء فى تلك الساعة يكون باردا كالثلج ، والرحلة إلى هناك على الدراجة تبعث النشاط والمرح . وبعد السباحة يعودان معا إلى بيت جديه لتناول الإفطار بشهية عظيمة .

ولم يقصر أنطون فى واجباته المدرسية رغم هذا النشاط الرياضى المتنوع ، ونجح بتفوق فى امتحان آخر السنة ، وبذلك لم تبق أمامه الا سنتان على التخرج ..

* * *

لكن ماريان عادت فى تلك السنة قبل عيد الميلاد ، وبذلك الغى أنطون رحلته إلى سويسرا وقضى العطلة مع أمه وجديه ، إلا أنه لم يذهب معهم إلى السهرات العائلية ، بل قضى سهرات مع رفاقه التقى فيها بفتيات كثيرات ، بيد أنه لم يشعر بارتياح إلى صحبتهن . ولما وجدنه خجولا مرتبكا فى معاملتهن ، متحفظا فى حديثه وحركاته معهن ، استصغرن شأنه واعتبرنه « تليمذا » غشيما فى أمور الغرام !

وتجول مع والدته عشية عيد الميلاد فى ميدان الطرف الأغر، واستمع للترتيل الشجى ، واستمتع بالشجرة السكندنافية العملاقة المعدة فى الميدان بمناسبة عيد الميلاد . وفى صباح عيد الميلاد ذهبوا جميعا ــ بما فيهم جده ــ إلى الكنيسة .

وكانت هذه الفترة بداية انحسار فى صداقته بلندلى ، الذى أبدى فى حفلات عيد الميلاد اهتماما واضحا بصحبة الفتيات . لا عن اهتمام بواحدة منهن بالذات ، بل كان « الجنس » فى مجموعه يستهويه بصورة خارقة لم يسترح إليها أنطون !

أجل أنهما لم يزالا على عهدهما من السير معا أثناء فترات الراحة بين الدروس ، ولكن التقاءهما خارج المدرسة قل كثيرا عن ذى قبل ، لأن أنطون شعر بعدم القابلية أو عدم القدرة على مجاراته فى اهتماماته الجنسية الجديدة . بيد أن ذلك لم يثقل على نفس أنطون ، لأنه من جانبه استحدث لنفسه اهتماما من نوع جديد خاص به ، وهو الاهتمام بالكتب . لقد كان يشعر قبل الآن أن عدم استقراره يمنعه من قراءة أى شىء سوى ما تتطلبه دراسته من الكتب العلمية . ولم يكن لديه متسع من الوقت للقراءة الخاصة كهواية . وحتى فى تلك الأوقات التى لم يكن ذهنه فيها مركزا على موضوعات الدرس، كان خياله يشرد به دائما إلى روابى فلسطين وآجامها وتلالها وخمائلها ، فيتذكر تارة أباه فى أريحا ، وتارة أخرى يتمثل وليدا فى (رام الله) .. أو تتراءى له طريق .. (بئر سبع) !

ولكن فى عيد الميلاد من هذه السنة قدم إليه أستاذه « جيرالد جونز » المجلد الأولى من مذكرات شاتوبريان ،

بمناسبة زيارته السابقة لسان مالو حيث ولد الكاتب العظيم وحيث زار مع ماريان ضريحه ، وقال له :

ــ لقد كان شاتوبريان غلاما يشعر بوحشة ووحدة عظيمتين ، وكان مرهف الحس مشبوب الخيال . وقد يروق لك أن تتعرف على معالم طفولته وصباه ، وسترى كيف كان أبوه القاسى يرغمه على النوم بمفرده فوق قمة برج من أبراج القلعة العتيقة . وكان الشائع بين الناس أن ذلك البرج تسكنه الأشباح والأرواح الشريرة . ولا سبيل للوصول إلى قمته إلا عن طريق مشارف يعشش فيها البوم الذى يتطاير فى الظلام وهو يرسل نعيقه الكئيب الرهيب مختلطا بهزيم الرعد وزمجرة رياح الشتاء وهدير الموج فى البحر الثائر !

والحقيقة أن جيرالد أثار اهتمام أنطون بالكتاب عن طريق إثارة خياله، فراح الفتى يقرأ الكتاب بنهم عظيم . ولم يستجب كثيرا لما تراه فى تلك الصفحات من شدة حنين « فرانسوا رينيه شاتوبريان » الصغير إلى الحب الانثوى ، فما كان هذا الحنين ليجد صدى فى نفسه ، ولكن مخاوف الغلام الصغير ، وخجله ، وتردده ، وشكوكه ، وجدت صدى عظيما فى نفس الفتى العربى المغترب ، وكذلك الإحساس بالعبء الباهظ الذى يلقيه على كاهله الواهن هذا العالم غير المفهوم !

وقرر أنطون أن يذهب مرة أخرى يوما ما إلى (بريتانى) فيزور قلعة « كومبيرج » ويعبر تلك المشارف الرهيبة التى اجتازها فى الظلام ــ ليلة بعد ليلة ــ ذلك الفارس الفرنسى الصغير « شاتوبريان » وهو يقاوم الفزع والارتياع . وأفضى

انطون بهذه الرغبة إلى أمه ، فوعدته بأن يذهبا إلى هناك فى عطلة عيد الفصح ، ثم تأجلت الرحلة إلى عطلة الصيف ، ولكن الظروف حالت دون تنفيذ هذا الوعد على نحو أو آخر . ولم يضر ذلك انطون كثيرا ، لأنه تجاوز مرحلة ذلك الكتاب إلى كتب أخرى استأثرت بتفكيره . فقد اهتم بكتب المغامرات الحقيقية والرحلات ، ومن أهمها رحلة جزر الهبرايد للدكتور جونسون ، وقد استعار هذه الكتب من مكتبة «جيرالد جونز» ، ثم نقب فى مكتبة جده عن كتب أخرى فوجد كتابا عنوانه « سعيد الصياد » بقلم « بكثول » . وسعيد هذا رجل شجاع لم يتردد فى أن يموت شهيد الإسلام على صورة لم يتمالك انطون نفسه من الهتاف لها بحماسة عند الفراغ من تلاوة قصته . وسأل انطون عن هذا المؤلف « بكثول » ومن عساه يكون ، وهو يجد فى كتبه وصفا صادقا لأحوال فلسطين منذ أواخر القرن الماضى ، فقال له جده :

ـ إنه ابن قس إنجليزى ، وقد أحب الشرق العربى وفلسطين وسورية واعتنق الاسلام وتعلم العربية وتفقه فيها وترجم القرآن إلى الإنجليزية . وأدرك أن الصهيونية لا يمكن أن تنتعش فى فلسطين إلا تحت حماية الحراب الإنجليزية . وقد كتب ذلك صراحة فى سنة ١٩٢٩ . وقد لاقت قصته «سعيد الصياد » رواجا كبيرا بين القراء الإنجليز ، ولكنه صار الآن طى النسيان . وهو بلا شك من أعرف الناس بأحوال العرب وأكثرهم حبا لهم . ولكم أثاره الظلم الذى يصب على عرب فلسطين صبا بالتعاون المتواطىء بين الحكم الإنجليزى

والصهيونية . وقد مات الرجل فى سنة ١٩٣٦ ، وكانت ترجمة القرآن آخر أعماله ، وكان القدر رحيما به حين جنبه عذاب مشاهدة النكبة التى حلت بفلسطين .

واكتشف انطون أن أمه تعرف « بكثول » وقرأت كتبه ، وكانت تعجب كثيرا بكتبه عن الشرق وبقصصه الشرقية ، أما قصصه الإنجليزية فلا تعجبها على الاطلاق . و « سعيد الصياد » فى نظرها أحسن ما كتبه عن بلاد العرب ، لأن ذلك الكاتب لم يكن يعرف شيئا عن المتعلمين العرب ، وكانت كل معرفته بالبسطاء والأميين ، فقد كان يفهم روحهم وعقليتهم جيدا .

وكان المفروض بعد انتهاء انطون من المدرسة الثانوية الا يدخل مدرسة العلوم الاقتصادية لدراسة العلوم الاجتماعية إلا بعد تمضية سنة فى التمرين العملى على الخدمة الاجتماعية ، ففكر فى أن يمضى تلك السنة من التمرين والخبرة فى المملكة الأردنية بين مواطنيه اللاجئين ، كى تكون هذه السنة فرصة له للاجتماع بصديقه وليد ، ولعلهما يستطيعان فى غضون تلك السنة التسلل إلى بئر سبع ، وليكن بعد ذلك ما يكون .

وأفضى بفكرته إلى جده الذى قال له :

ـ لست أرى ما يمنع من ذلك ، بشرط أن توافق أمك على هذا السفر بطبيعة الحال . فانها قد لا تميل كثيرا إلى فراقك سنة كاملة .

ــ ولكنها ستسمح لى بالسفر إذا انت حبذت فكرتى ، وقلت لها أن أبى كان حريا أن يقرها لو كان على قيد الحياة أليس هذا رأيك يا جدى ؟

فنظر روبرت ملبى إلى وجه حفيده المتلهف ، ثم قال :

ــ بلى ! اظن هذا . فقد كان يريد لك أن تظل عربيا ، وإن كان حريصا على أن تتلقى تعليمك فى إنجلترا . ولكنه من جهة أخرى ما كان يحب لك أن تهجر أمك ..

ــ ولكنى سوف لا اهجرها يا جدى . فلسوف أعود فى نهاية السنة وسأبقى هنا سنتين لتلقى المحاضرات فى الجامعة . ثم أنها لا ترانى أثناء العام الدراسى إلا مرة واحدة فى عطلة الأسبوع . وفى بعض الأحيان تمر العطلة الاسبوعية من غير ان ترانى ، حين تكون مشغولة أو مسافرة لتتسقط الأخبار ! انا واثق أنها لن تمانع .

ــ سنبحث الأمر كله يوم الأحد . ولكن خبرنى هل فكرت فيما ستصنعه هناك فى الأردن ؟

فاحمر وجهه ، وقال :

ــ خطر لى أن أساعد فى إدارة معهد العميان ببيت لحم حيث يقيم صديقى أمين . واعتقد أن فى وسعك أن تمهد لى ذلك ، بما أن معهد بيت لحم تابع للجمعية التى تشرف على معهد يافا حيث كنت تعمل أنت فيما مضى . ولا سيما اننى أعرف الشىء الكثير عن العميان بسبب معاشرتى الطويلة لأمين كما تعلم .

ــ فكرة طيبة فعلا ، بل طيبة جدا . سأذهب إلى مقر الجمعية وأتحدث إليهم فى هذا الموضوع منذ الآن ، فهذه المسائل يستغرق الانتهاء منها وقتا طويلا إلى أن تتم الموافقة .. فهناك مستويات كثيرة للجان كما تعلم .

ــ شكرا لك . وثق انى مستعد للقيام بأى عمل هناك مهما كان صغيرا ، ولن أخذلك ، لأنى فى الحقيقة مهتم جدا بالعميان ولا سيما أن « أمين » سيكون معى طول الوقت . وسيكون فى وسعى أن أرى صديقى خالدا فى أوقات فراغى .. الا ما أبدع هذا !

ــ ولكن ما الذى جعلك تفكر فى هذه الأمور كلها ؟ هل أصابتك نوبة أخرى من الحنين إلى الوطن ؟

ــ أوه . إن المسألة فى مجموعها معقدة كما تعلم ، ويدخل فيها عدد كبير من العوامل ..

ــ مفهوم . مفهوم . إن فلسطين طبعا حياتك الحقيقية . ولقد كان فلسطين حياتى الحقيقية يوما ما . ثق انى سأفعل كل ما أستطيع لتحقيق هذا الأمل إن شاء الله !

ــ إن شاء الله ..

— ٥ —

جرى هذا الحديث فى حجرة الجلوس فى مساء من أمسيات نوفمبر الباردة ، والضباب يزحف من المتنزه العام متسللا إلى داخل البيت على الرغم من النوفذ المغلقة والستائر المسدلة . وقد جلس مستر ملبى فى مقعده الوثير العتيق بجانب النار ، وجلس تبالته أنطون . أما «الزبيث» فكانت خارج البيت تحضر اجتماعا لإحدى اللجان المحلية التى تشترك فيها . ولذا اتيح لأنطون فى هذا المساء أن يسترخى فى جلوسه كما يشاء وأن يطعم نيران المدفأة بكتل من الخشب ليحول بينها وبين الخمود. أما جده فهو على عادته معه لا يبدى اعتراضا على تصرف من تصرفاته ، بل يشعر انطون فى قرارة نفسه أن جده يضمر التشجيع له على أنواع السلوك التى تضيق بها جدته ! ولذا فهو يشعر بالألفة الشديدة وسكينة النفس حينما يخلو إلى جده فى الدار على هذا النحو ، بينما جدته تقضى وقتها فى الخارج .

مسكينة هذه الجدة ! فهى من ذلك الطراز من الناس الذى تشعر أنه يحبك أكثر بكثير مما تحبه ، وكنت حريا أن تحبه بمزيد من القوة والعمق لو أن حبه لك خفت حدته قليلا !

وتخيل أنطون أن الجدة عادت من الخارج وأن أول ما صنعته انها بددت تلك العتمة الحبيبة إلى النفس ، وما تفيض به من حرارة وإيناس ، فأوقدت المصابيح الشديدة وصاحت بهما فى استنكار كعادتها :

— لماذا تجلسان هكذا فى العتمة ؟ وهذه النار المتأججة ! إن الحرارة هنا شديدة لا تطاق !

وبسرعة يروح كل منهما يرفع الوسائد الصغيرة من وراء ظهره ويعيدها إلى مكانها المرسوم من حجرة الجلوس . أما الجدة فتتناول صحف المساء الملقاة حيثما اتفق فوق أحد المقاعد ، وسرعان ما « ترتبها » فى مكان خفى عن الأنظار كالعادة !

ويعقب ذلك قرقعة مألوفة ، وصليل الأوانى الخزفية ، لأن الجدة تصنع الشاى . وبعد الانتهاء من صنعه ، تملأ قدر الماء كعادتها كل ليلة لإعداد الماء الساخن الذى تملأ به الزجاجات لتدفئة أسرة النوم .

وكالعادة كل ليلة أيضا ، تتوقع الجدة من أنطون بعد تناول شايه وبسكويته أن « ينسحب » إلى حجرته بعد أن يذهب إلى المطبخ ليأخذ زجاجة الماء الساخن . ولكن الوقت لم يكن قد جاوز الثامنة مساء بكثير . ولم تكن الجدة قد عادت بعد . وليس من المنتظر أن تعود قبل ساعتين . وفى وسعه هو وجده أن يتحدثا ما طاب لهما الحديث أو يصمتا ما طاب لهما الصمت ، فصمتهما مأنوس كحديثهما أو أشد أنسا . اما الجدة فلا تعرف الصمت معنى ، إلا إذا كان المرء يطالع أو يكتب . أما فى غير هاتين الحالتين فهى تنتظر من كل إنسان أن يتحدث فى شىء ، أى شىء ، حتى ولو لم يكن ثمة ما يستدعى الكلام . ولهذا السبب أيضا كانت تستخدم الراديو أقل استخدام ممكن ، لسماع نشرات الأخبار على الخصوص والنشرة الجوية . أما

الكلام فلم يخلق له الراديو ، وإنما خلقت له ألسنة الناس !..
فى حين كان الجد ينتهز فرصة خروجها من البيت ليدير مفاتيحه
ويتلمس البرامج الموسيقية الجميلة من بروكسل أو لكسمبورج .
وما أشد ما كان يأسى على أنه لا يستطيع التقاط إذاعات عمان
والقاهرة !

وفى ذلك المساء كان مدار حديثهما عن سفر أنطون إلى
الأردن . وكلما أوغلا فى مناقشة الموضوع بدا لهما ممكن
التنفيذ . وارتفعت روح أنطون المعنوية ، حتى أنه صاح :

ـ لم تبق إلا سنة واحدة ! اتظن يا جدى أنه سيكون فى
وسعى بعد ذلك ان احتفل بأعياد الميلاد فى بيت لحم نفسها ؟

ـ ربما . ولكن والدتك قد تستاء ويتأذى شعورها .
ولا تنس أيضا موقف جدتك من هذا التفكير !

ـ آه ! لقد حظيت « ماما » بعيد الميلاد فى الكويت عندما
راقها هذا !

ـ ولكنها لم تمكث هناك سنة كاملة . اسمع ! هيا بنا
نتصل بها الآن تليفونيا ونحاول الاتفاق معها على المسألة
مبدئيا ...!

وكانت ماريان فى شقتها الخاصة ، وقد أدهشها أن تتلقى
حديثا تليفونيا من والدها ، وكان أول ما خطر لها أن سوءا
أصاب أمها أو أنطون . ولكن والدها صرف عن ذهنها هذا
الخاطر بالخوض مباشرة فى الموضوع :

ـ ماذا ترين فى قضاء أنطون سنة العمل التدريبى فى
الأردن ، وربما كان هذا فى مدرسة المكفوفين ببيت لحم ؟

واجفلت لأول وهلة ، ثم شعرت بضيق ، فقالت :

ـ وهل لابد لنا من البت فى هذه المسألة الآن ؟ لن تكون
بنا حاجة إلى ذلك إلا فى السنة التى بعد التالية !

ـ هذه المسائل يستغرق تدبيرها وقتا طويلا ، والفكرة
مستولية علينا أنا وأنطون .

ـ أهى فكرتك ؟

ـ بل فكرة أنطون . ولكنها تبدو لى فكرة طيبة .

ـ أتعنى أنه هو الذى فكر فى هذه الخطة التى تبقيه بعيدا
عن البيت سنة بطولها ؟

ـ إنه ليس طفلا يا ماريان . ثم إنه فى مقدورك عند
القيام بإحدى أسفارك الصحفية إلى الشرق الأوسط أن تعرجى
على القدس لتريه .

ـ لست احب أن أذهب إلى القدس مرة أخرى . وأنت
تعرف شعورى لأنك أنت أيضا لا تحب هذا . فلماذا يريد
أن يذهب إلى هناك ؟ لقد كان الاتفاق فيما بيننا أن يقضى فى
الأردن عطلة محدودة قبل أن يتسلم عمله الذى سيشرع فيه
هنا . وينبغى أن يكون هذا حسبه .

ـ إنه يشعر بالحنين إلى وطنه يا ماريان !

ـ إن وطنه فى الوقت الحاضر ها هنا !

ــ وهل نسيت أنه ابن بطرس منصور ؟ إن وطنه فلسطين!

ــ لم يعد لهذا الوطن الآن وجود .

ــ لا . بل الضفة الغربية لم تزل قائمة ، حيث نابلس ، ورام الله ، وبيت لحم ، وأريحا ، والخليل . وفى إمكان المرء ان يحن إلى الجزء ، إن أعوزه الحنين إلى الكل !

وعندئذ قالت ماريان فى صبر نافد : « ليس فى وسعنا أن نناقش هذا الموضوع عبر أسلاك التليفون ، فابقه حتى أحضر يوم الأحد » .

ــ ولكن أنطون لن يواتيه النوم ما لم يعرف انك توافقين على فكرته من حيث المبدأ !

وتوسل إليه أنطون ، قائلا : « دعنى أكلمها ! » .

فقال لها أبوها : « أنطون يريد أن يكلمك بنفسه » .

ــ أرجوك يا اماه أن تقولى نعم ! أرجوك !

ــ هل تكره إنجلترا إلى هذا الحد ؟

ــ انا لا أكره انجلترا .. أنت تعلمين تمام العلم انى لا اكرهها ! ولكنى أريد أن أرى وليدا وأمينا وعمى فريدا وسائر الأقارب . انى إن ذهبت اليهم فى نهاية العام القادم سأكون قد سلخت بعيدا عنهم أربع سنين ؟

ــ كثيرا ما يظل الناس بعيدين عن أوطانهم عشرين سنة ، أو ثلاثين ... بل العمر كله أحيانا !

ــ لا أستطيع يا أماه ! هــذا فوق مقــدورى . لأموتن لو فعلت ! أرجوك يا أمى الحبيبة ان تقولى نعم !

وشعرت ماريان على الفور أنها خسرت الجولة ، فقالت : « ليكن . ما دام هذا مطلبا عزيزا عليك إلى هذا الحد . والآن دعنى أكلم جدك من فضلك » .

ــ أوه . أحبك يا أمى ! أحبك . أحبك !.. ها هو جدى .

وقالت ماريان لأبيها : « لعلك أدركت انى انقدت لرغبته ، ولكنى غير راضية النفس . فانا واثقة أنها غلطة .. » .

ــ لست أدرى كيف يمكن أن تكون كذلك يا عزيزتى .

ــ دعنا من الكلام فى هذا الآن . وسأحضر للغداء يوم الأحد إن شاء الله .

ــ إن شاء الله . وطابت ليلتك يا عزيزتى .

ووضع « ملبى » المسماع ، ونظر إلى حفيده وابتسم كل منهما لصاحبه ، ثم قال ملبى : « سيكون كل شىء على ما يرام .. انها فى الوقت الحاضر غير متحمسة للفكرة ، ولكننا سندخل الطمانينة على نفسها يوم الأحد عندما تحضر » .

فصاح أنطون : « بل هــذا رائع . رائع جــدا ! كم كنت اتمنى لو جئتم معى ، أنت وماما وجدتى .. فنعود كلنا معا إلى الوطن .. » .

أما ماريان فلم تتحرك من جوار التليفون بعد أن وضعت المسماع ، بل دفنت وجهها فى يديها ، واندفعت تبكى ..



ــ ٦ ــ

اما « الزبيث » فكانت صريحة فى معارضتها لمشروع سفر انطون إلى الأردن . وآذى شعورها أن يفكر انطون مثل هذا التفكير ، واغضبها أن يكون جده روبرت ضالعا معــه فيه ، وأن تكون ماريان من الضعف بحيث لا تقف فى وجــه هــذا المشروع وقفة حاسمة !.. لقد كانت الجدة موقنة ان انطون لو عاد إلى الأردن وقضى هناك سنة كاملة فسيكون فى ذلك القضاء المبرم على كل ما بذل فى السنوات الأربع من جهــود فى سبيل تأقلمه بالطبــاع الانجليزيــة ، وســيتعين الابتداء فى تلك الجهود من جديد ، حينمــا يرجع إلى انجلترا . ولكن هذا الذى ساورها لم يستطع أن يغير من الوضع شيئا ، لأن الأم والجد كليهما لم يجدا غضاضة فى شعور انطون بعروبته وحرصه على تجديدها ، ولا تثريب عليه إن هو غلب عروبته الموروثة عن أبيه على ميراثه عن أمه .

وكانت الجدة تتمنى لو انه أبدى شيئا من الاهتمام بالفتيات وقد صار الآن فى عامه الثامن عشر . فمن اعجب العجب ان شيئا من أعراض الفتيان فى تلك السن لم تظهر عليــه . وهو أمر يدعو للرثاء ، لأنه لو تعلق بفتاة لطيفــة لاستطاع هــذا الهيام أن يثنيه عن الرحيل إلى الأردن !.. وداعبها الأمل فى أن يلتقى فى حفلات عيد الميلاد القادم التى يقيمهــا زملاؤه فى المدرسة بفتاة لطيفة من هذا الطراز الجميل الرقيق المهذب . ولعلها تكون شقيقة أحد هؤلاء الزملاء .

ولكن عيد الميلاد أقبل ثم ولى من غير أن يجد فى الأمر جديد . ولم يشعر قلب انطون بشىء من الخفقان ، اللهم إلا خفقــان اللهفة والتمنى أن يقضى عيد الميلاد التالى فى بيت لحم !

لكن الجــدة لم تيأس ، بل تمنت حين يأتى الربيع ويكون انطون قد اقترب من تمام الثامنة عشرة ، أن تتحرك فيه نوازع الحب .. نعم ، فلابد ان يقع فى هوى فتاة ما عما قريب ، سيما وأن منظره وفتنته لابد أن يجتذبا الفتيات الانجليزيات ، ومن طبائع الأشــياء أن يستجيب قلبــه الشــاب لمحاسن إحداهن !

وراحت مسز ملبى تطيل التفكير فى تلك الفتاة الموعودة ، وفى مرجوها أن تكون ابنة إحدى الأسر التى يعرفها آل ملبى ، واول صفاتها أن تكون « سيدة » بمعنى الكلمة ، يلتقى بهــا انطون فى إحــدى الحفلات العائلية الصغيرة ، أو إحــدى حفلات الكنيسة ، أو إحــدى الأسواق الخيرية التى تقيمها الجمعيات الكثيرة التى تسهم فيها مسز ملبى بنشاطها الكبير . ولسوف ينشأ الحب بينهما ــ فيما تتخيل ــ من أول نظرة . وعلى مهل تتطور العلاقة بينهما إلى خطبة . ثم بعد ســنة أو سنتين يعقد قرانهما فى الكنيسة . وسيكون حفــلا بهيجا لن تدخر الأسرتان وسعا ولا نفقة فى إضفاء الأبهة والمرح عليه . وفى الوقت المناسب سيرزق العروسان الشابان بطفلين أو ثلاثة . وهكذا يستقر انطون بعــد قلق ، ويخلد إلى حيــاة إنجليزية بمعنى الكلمة ، ويتبخر من ذهنه كل اثر لخيــالات الصبا التى تحفزه للتفكير فى العودة إلى وطنه العربى !

ولمــا لم تستطع مسز ملبى الخوض فى حديث هذا الحلم

العزيز عليها مع زوجها روبرت ، انتهزت أول فرصة ففاتحت ابنتها ماريان فى ذلك . ولكن ماريان أم وليست جدة . فلم تكن متعجلة مثل أمها على أن يصل ابنها ــ وهو فى السابعة عشرة من عمره ــ حباله بحبال فتاة تستأثر به مدى العمر . وقالت لأمها بصريح العبارة ، ان الطبيعة ستأخذ مجراها فى أوانها المناسب من غير أن تعنيا نفسيهما بالقلق والتفكير فى الأمر قبل الأوان .

وكانت لهجة ماريان حازمة ، ولا تخلو من نفاد الصبر والضيق . ولعلها كانت مدركة ــ فى أعماق سريرتها ــ أن نقصان الجانب الغزلى عند ابنها أنطون ، راجع فى المحل الأول إلى أن قلبه مشغول بحب كبير أخذ عليه مجامعه . وذلك الحب ليس موضوعه امرأة ، وإنما موضوعه حلم مسرف فى الخيال ، ولكنه مسرف فى الجمال والسحر . إنه حلم العودة إلى الوطن الذى تسرى دماؤه فى عروقه وخلاياه !

* * *

ولكن شاء القدر عقب هذا الحديث بين الجدة والأم بوقت قصير ، أن يتعلق أنطون بفتاة كان يقابلها منذ بضعة أسابيع، فى الخفاء !

وكانت ظروف التقائه بها حرية أن تروع جدته ، لأنه لم يتعرف بها فى كنيسة ولا حفل ولا جمعية ، بل تعرف بها فى .. الطريق العام !

ففى ذات يوم من أيام أغسطس الرطبة الحارة ، شعر أنطون بعد الظهر بالاختناق ، فوضع فى جيبه كتابا من كتب

الاقتصاد ، وانطلق إلى المتنزه العام ، ينشد نسمة عليلة من الهواء . وكان عدد الرواد قليلا فى تلك الساعة ، وصف المقاعد الخشبية المواجهة لطاحونة الهواء خاليا ، فتخير المقعد الأوسط ، وجلس عليه مسترخيا بضع دقائق ، ثم أخرج كتابه من جيبه ، وشرع يطالعه فى غير استغراق .. وإذا به يسمع صوتا أنثويا ، يقول له :

ــ عفوك !

فرفع بصره ، وإذا بفتاة سوداء الشعر ترتدى ثوبا عليه رسوم أزهار فاقعة اللون ، تقف بجوار مقعده ، ولفت نظره كثرة الكحل فى عينيها ، وغزارة أصباغ شفتيها ، وبروز صدرها الناهد بروزا غير مألوف فى بيئته ، تحت صدار ثوبها الضيق .

ــ عفوك ! هل هذا معطفك الواقى من المطر ؟

وأشارت إلى معطف واق من المطر من البلاستيك أحمر اللون ، فى كيس من البلاستيك أحمر اللون أيضا . ولم يكن قد ألقى إليه باله حين جلس ، فقال لها : « لا . إنه ليس معطفى » .

ــ إذن فهو معطفى أنا .

وابتسمت ابتسامة مشرقة ، فشعر بحدة ارتباكه وقد خفت ، فقد ذكرته هذه الابتسامة بابتسامة ابنة عمته نادية . واستطردت الفتاة : « لقد تركته هنا وذهبت أتمشى قليلا عند البحيرة ، وفجأة تذكرت انى نسيته ، فعدت . ولكنى عندما



فرفع بصره ، واذا بفتـاة سـوداء الشعر
ترتدئ ثوبا عليه رسوم أزهار فاقعة اللون ..

رأيتك جالسا خشيت ألا يكون هـذا هو المقعد ، وأن يكون المعطف لك . فمـا أشد انتشار هذا النوع من معاطف المطر الآن » .

ـ إن لدى معطفا منها بالفعل . ولكنه ليس قرمزيا ، بل لونه أزرق داكن . ولكنى لم آت به معى .

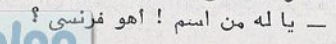
وجلست الفتاة على المقعد ، وبعد لحظة صمت قالت له :

ـ لست أحسبك انجليزيا .
ـ أمى انجليزية .
ـ ولكنى أحسب أباك أسبانيا .
ـ لا .

واخرجت من حقيبة يدها البيضاء علبة سجائر وقداحة ، وبعد أن أشلعت سيجارتها قدمت إليه العلبة ، فقال لهـا : « شكرا لك . أنا لا أدخن » .

ومدت يدها إلى الكتاب ، فلما قرأت عنوانه العلمى بدا على محياها الاستهوال ، وأخذت تحدثه عن عمله ، فلمـا عرفت أنه طالب بالمدارس الثانوية ويهم بدراسة العلوم الاقتصادية والاجتماعية ، زاد عجبها . وعرفته باسمها : « اسمى روزا روزادو » .

ـ اسم جميل .
ـ إن جدودى أسبان ، وهذا هو السر فى اسم روزادو . .
ـ وأنا اسمى منصور . أنطون منصور .
ـ يا له من اسم ! أهو فرنسى ؟



ـ بل عربى !

ـ عربى ؟! من أى البلاد أنت إذن ؟

ـ من فلسطين .

فاطفأت سيجارتها ثم قالت : « ولكنك قلت إن أمك انجليزية . فأنت إذن نصف عربى فقط !

ـ وهل هذا يعتبر فى نظرك علامة سيئة أو حسنة ؟

ـ لست أبالى بجنسيات الناس ما داموا ظرفاء . ولكنك قد قضيت هنا فيما يبدو زمنا طويلا .

ـ أربع سنوات . فقد فقدت أسرتى كل شىء تقريبا عندما دخل اليهود (اللد) فى يوليو سنة ١٩٤٨ . وبذلك خسرنا بيتنا وبساتين برتقالنا ورأس مالنا وكل شىء . وقد قتلت هذه الكارثة أبى . كنا قد مضينا فعشنا فى (أريحا) سنة ـ فلنا فيها بيت وضيعة ـ ولكن قلب أبى كانت قد حطمته الصدمة ، فلم يلبث أن مات .. وجئت أنا مع أمى إلى انجلترا .

ـ يؤسفنى جدا أن يحدث لكم هذا .

ـ شكرا لك . ولكن دعينا من هذه الأحاديث المحزنة ، ولنتحدث قليلا عنك . ماذا تفعلين هنا فى المتنزه وحدك ؟

ـ وحدى ؟ ولماذا لا تخرج الفتاة النزهة وحدها ؟

ـ لست أدرى . ولعل السبب أن الفتيات فى بلادى لا يتجولن فى الخلوات وحدهن . ومع هذا لا أعتقد أن فتيات إنجليزيات كثيرات يذهبن إلى المتنزهات بمفردهن .

ـ وما أدرانى . بعضهن يفعلن ذلك ، وبعضهن الآخر لا يفعلنه . وكل شىء يتوقف على مزاج الفتاة وشخصيتها ، وحالتها العصبية . وأنا شخصيا آتى دائما إلى هنا فى الأيام التى يغلق فيها المتجر أبوابه مبكرا لأستنشق شيئا من الهواء الطلق ، لأنى أقضى أيام الأسبوع داخل المتجر محرومة من نسمة منعشة . فوالدى يدير متجرا لملابس السيدات ، مع أفراد أسرتنا : أبى يشرف على الجانب المالى والتجارى ، وأخى على عمليات الشراء ، وأمى على التعديلات التى تطلبها العميلات ، وهى لا تبارح الجزء الخلفى من المتجر . أما أنا فأقوم بالبيع فى المتجر بمفردى .. لقد غادرت المدرسة عندما بلغت الخامسة عشرة ، ولست أدرى كيف تطيق أنت البقاء فى المدرسة حتى هذه السن ؟!

ـ اننى أحب الدراسة .

ـ أما أنا فأحب الحياة !

وضحكت ، ووضعت ساقا على ساق ، فانحسر ثوبها الضيق القصير عن ركبتيها انحسارا شديدا ، واستطردت :

ـ وليس المرء فى حاجة إلى المدارس كى يمارس الحياة . فهى فى حد ذاتها مدرسة كبرى .

ـ لست أدرى ماذا تعنين بالحياة ؟ نحن جميعا نحيا إلى أن نموت !

ـ لا تصدق هذا الكلام ! إن بعض الناس لا يحيون بل يتخبطون هنا وهناك وهم أنصاف موتى !

— ما هى الحياة إذن فى رأيك ؟

— يا لك من شاب مضحك ! إن الحياة الحقيقية هى التمتع بالمباهج .. وأن تشبع رغبات شبابك . وهذا شىء تعرفه أنت جيدا بالطبع !

— المشكلة الكبرى أن هذا الشىء بالذات هو الذى لا أعرفه !

وبدا عليه الارتباك لحظة ، ثم ابتسم فجأة ، وقال باندفاع:

— عليك أنت أن تعلمينى !

فابتسمت ونظرت إليه نظرة غزل وتدلل ، وقد اطمأنت إلى ان الحديث قد انحرف إلى المستوى الذى كانت تنشده ، فراحت تتقاذف معه أطراف الكلام ، كما يتقاذف اللاعبان كرة (البنج بونج) .. فكان يلتقط الكرة أحيانا ، وأحيانا أخرى يفلتها ، غير ان هذا الأخذ والرد استغرق وقتا طويلا جدا .. ثم نظر أنطون إلى ساعته وعجب لتأخره وعدم إحساسه بمرور الوقت ، وقال لها معتذرا عن عدم استطاعته البقاء :

— نحن نتعشى فى السابعة .

— وأين تقيم ؟

فأخبرها بعنوانه ، واقترحت عليه أن يسيرا عبر المتنزه فى ذلك الاتجاه ، إلى أن يصلا إلى محطة السيارات العامة . ونهضا ، فحمل لها مظروف معطفها ، وسارا فوق الحشائش

النامية ، والفتاة تتهادى بجواره فوق كعبيها العاليين ، وأردافها الممتلئة ترتج تحت ثوبها الضيق .

وكان كثيرا ما رأى مثيلاتها فى الأفلام ، ولكن لم يخطر بباله انه سيسير بجوار إحداهن فى يوم من الأيام ! وكان إحساسه بها غريبا ، لأنه لم يسر بجوار فتاة من أى نوع من قبل ، حتى ولا بنات عمته !.. وعجب ماذا عسى أن يقول « لندلى » لو رآه . ثم تساءل عن سنها ، وخطر له انها تقاربه فى العمر .. وأحب أن يعرف على وجه التحديد ، فسألها :

— متى عيد ميلادك ؟

— فى يونية . شهر الورد . ولهذا سمونى روزا . وأنت ، متى عيد ميلادك ؟

— فى أكتوبر .

وأراد أن يستدرجها ، فاستطرد : « فى أكتوبر القادم سأتم الثامنة عشرة » .

— إذن فأنا أكبر منك بأربعة أشهر !

— عجبا . لقد ظننتك أصغر منى !

— والمضحك أننى ظننتك أكبر من سنك الحقيقية . حسبتك فى العشرين . ولذا عجبت لأنك لم تزل تلميذا فى المدرسة .

ووصلا إلى محطة السيارات العامة ، على الطريق الرئيسى المجاور للمتنزه . وفى فترة الانتظار خطر له أن يسألها

متى يقابلها ، ولكنه خجل وسكت . فلما أقبلت السيارة العامة عليهما ، ولم يقل شيئا ، قالت له : « ما رأيك فى أن نلتقى مرة أخرى ، مساء الجمعة ، فى منتصف التاسعة .. فى نفس المكان ؟ » .

ـ وإذا كان الجو ممطرا ؟

ـ فى هذه الحالة يا فتاى العزيز ندخل أى دار للسينما !

وغمزت له بعينها غمزة تواطؤ ، فاحمر وجهه ودق قلبه دقا عنيفا ، وقال : « ما أحب هذا إلى نفسى !.. لقد كنت أفكر فيه ولكنى لم أجسر على التصريح ! » .

وقفزت الفتاة إلى سلم السيارة العامة بكعبها العالى وثوبها المحبوك ، ثم جمعت شفتيها كأنها تقبله فى الهواء !

وفى طريق عودة أنطون عبر المتنزه ، وجد نفسه يعيش فى حلم ، وقد تبخرت من عقله كل موضوعات الاقتصاد السياسى التى كان مشغولا بها من قبل !.. وحلت محلها كلمات الفتاة عن الحياة ، والاستمتاع بالهوى ، وقضاء لبانات الشباب .. وأن معظم الناس يتخبطون فى الدنيا انصاف موتى ! .. وخيل إليه ان تلك كانت حاله إلى أن التقى بروزا التى ستعلمه كيف يحيا !

ولما وصل إلى البيت ، وجد جده فى الحديقة الأمامية الصغيرة منصرفا إلى العناية بأشجار الورد القليلة . فقال له الجد معاتبا : « لقد تجاوزت الساعة السابعة » .

ـ انى آسف جدا يا جدى ، ولكنى لم أفطن لمرور الوقت .

ـ وما هذا الذى بيدك ؟

وعندئذ فقط فطن أنطون إلى أنه لم يزل يحمل بيده معطف الفتاة ، فقال بارتباك : « لقد وجدته فوق مقعد بالمتنزه » .

ـ ولكن ما هو ؟

ـ انه معطف مصنوع من البلاستيك . معطف واق من المطر ، من الطراز الذى شاع كثيرا فى المدة الأخيرة .

فقال جده باشمئزاز : « معطف قرمزى ؟! كان من المستحسن على كل حال أن تمضى به إلى مركز الشرطة . فلا تنس أن تفعل ذلك غدا » .

ـ بل سأذهب به إلى هناك بعد العشاء مباشرة .

وبعد العشاء مباشرة مضى أنطون بالمعطف القرمزى إلى « لندلى » ، فقد كان متلهفا أشد التلهف على مكاشفته بالمغامرة العجيبة التى واتاه الحظ بها ، وابتدره بقوله : « احتفظ لى عندك بهذا الشىء إلى يوم الجمعة » .

ـ ما هذا ؟

ـ كنت أتنزه هذا المساء مع فتاة ، ووجدته فى يدى على سبيل الخطأ بعد أنصرافها ، ولا أستطيع أن آخذه معى إلى البيت . فجدى وجدتى كما تعلم .. ويوم الجمعة سألقاها مرة أخرى فأرده إليها .

وحملق لندلى فى وجهه ، ثم قال : « هل قلت حقا ما خيل إلى أنك قلته » ؟

فابتسم أنطون ابتسامة عريضة وقال : « لكل شىء أوان كما تعلم » .

— وأين عثرت عليها ؟

— أنا لم أعثر عليها . هى التى عثرت على وأنا جالس على مقعد فى المتنزه العام أطالع كتابا فى الاقتصاد السياسى !

ثم اندفع خارجا ، وترك لندلى فاغر الفم ، والمعطف القرمزى — دليل المغامرة الخرافية — لم يزل فى يده !

— ٧ —

وبعد نصف ساعة من ركوبها السيارة العامة ، كانت الفتاة التى دعت نفسها باسم « روزا روزادو » جالسة فى حانة تروى تفاصيل مغامراتها بحماسة على مسامع صديقتها العزيزة « ألس ماير » . وكان للآنسة ماير هذه صدر بارز على غرار صدور نجوم السينما ، وعينان سوداوان يثقلهما الكحل ، وهى فى الخامسة والعشرين من عمرها ، أى أنها اكبر من صديقتها « روزا روزنبرج » — فهذا هو اسمها الحقيقى — بسنة واحدة . وتعمل «ألس» فى قسم الأشرطة والاسطوانات بمتجر لبيع أدوات الموسيقى ، وتخال نفسها مثقفة . وتأمل أن تتزوج من « لين » شقيق روزا الذى يشاركها فى الميول الثقافية والميول الصهيونية ، وقد تعرفت إليه عندما حضر لشراء بعض الأشرطة والاسطوانات . وكان العامل الأكبر فى جاذبيته بالنسبة لها أنه يحلم بالهجرة إلى (تل أبيب) قلب الصهيونية النابض ، فلم يكن فى ذهنها شىء أعز لديها من الرحيل إلى « الوطن » ، إلى « إسرائيل » ، مع الرجل الذى تحبه !

ومن أسف أن والدى « لين » كانا لا يشاركان ابنهما أحلامه الصهيونية ، فقد ولدا ونشآ فى لندن ، ويعتبران كل بلد غير انجلترا أرضا أجنبية فى نظرهما ، والقومية فى اعتقادهما شىء ، والدين شىء آخر ، وقصارى نظرهما إلى نفسيهما انهما لندنيان يدينان بالعقيدة الموسوية .

وأما ابنتهما روزا فلم تكن تعير هذه المسألة اهتماما ، فلا الدين يعنيها ولا الوطن . ولندن فى نظرها مكان لطيف لأنها الفته . ولذا كانت «ألس» و «لين» يعتبرانها « خفيفة العقل » أو « ضحلة » ، ويأملان أن تحب يوما ما شابا صهيونيا متحمسا فتتحمس هى أيضا بالتالى للصهيونية . ولكنها الليلة وهى جالسة أمام ألس تحتسى جرعات كبيرة من شراب « الجين » القوى وتروى لها قصة اصطيادها لتلميذ غريبر فى المتنزه العام ، سببت آلاما شديدة لصديقتها ، لأنها زادت ابتعادا عن الأمل المنشود لها ..

ــ لقد قلت له انى بلغت الثامنة عشرة فى يونية الماضى ، فقال لى إنه كان يحسبنى أصغر من ذلك سنا ! وقلت له إن اسمى « روزا روزادو » وأن أجدادى من أصل أسبانى !

ــ هل جننت ؟

ــ لو اننى قلت له إن اسمى « روزا روزنبرج » لكان من الجائز أن ينفر منى ، ولم أكن مستعدة للمجازفة بذلك . ولكنك لا تستطيعين تقدير هذا الاحساس لأنك لم ترى جماله . ولأنك أيضا لا تعرفين جنسيته !

فقالت الآنسة مايير بمرارة : « لعله عربى » ؟

فنظرت إليها روزا بدهشة وقالت : « رباه ! كيف تسنى لك أن تعرفى أنه عربى » ؟

ــ عندما قلت لى إنك ادعيت لنفسك تلك الدماء الأسبانية ، أدركت أنه فى الغالب من أصل له صلة ببلاد الأندلس . ولكن أهو عربى حقا ؟

ــ تقريبا .. انه فى الواقع فلسطينى . وقد روى لى كيف اضطروا ــ هو وأسرته ــ للخروج من بلدهم فى سنة ١٩٤٨ ، وكيف خسرت أسرته كل شىء بسبب ذلك ، وأن هذه النكبة قضت على حياة أبيه بعد ذلك بوقت قصير . والحقيقة انى أسفت كثيرا له ..

ــ أسفت له ؟ انهم الذين بادؤونا بالحرب والعدوان ! انصحك يا روزا الا تذكرى شيئا من هذا لأخيك !

ــ لست أبالى . فهو جذاب جدا . وسوف أقابله مرة ثانية يوم الجمعة .

ــ آه ! انتظرى إلى أن يكتشف انك يهودية !

ــ سوف لا أخبره !

ــ ولكنه لابد أن يكتشف الحقيقة فى النهاية .

ــ وهبى أنه عرف ، فماذا فى ذلك ؟ ليس من موجب اطلاقا فى نظرى للعداء بين اليهود والعرب !

ــ لا تكونى بلهاء إلى هذه الدرجة يا روزا ! لا تقابليه بعد اليوم . فانه ــ عاجلا أو آجلا ــ سيكتشف أنك يهودية ، وعندئذ سينقلب حبه لك إلى كراهية ومقت . ثم ما جدوى هذه المغامرة على كل حال ؟

ــ ماذا تعنين ؟

ــ انه حديث السن جدا . وحتى لو لم يكن حديث السن جدا فلن يمكنكما الزواج على كل حال !

ـ ومن الذى يفكر فى الزواج ؟ انى اريده صاحبا وحبيبا
ألهو وأتمتع بشبابى معه بعض الوقت . وهذا كل شيء ! ثم
إنه صارحنى باعتزامه الذهاب إلى الأردن فى نهاية السنة .
آه لو رأيته ! إنه لطيف بصورة لا يتخيلها العقل .. وساذج
جدا . وبرىء . واعتقد أنه لم يسبق له تقبيل فتاة فى حياته
كلها ! تصورى أنه قال لى أن على أن أعلمه كل شيء عن
الحب ، وعن الحياة المرحة اللذيذة ؟!

وضحكت روزا فى سعادة ، وأردفت : « وأراهنك على أنه
سيتعلم بسرعة فائقة . فهو يبدو ذا استعداد هائل فى هذه
الناحية .. فشكله يدل على ذلك » .

ـ يدل على ماذا ؟ على الذكاء ؟

ـ أوه .. بل على الموهبة الجنسية !

فقالت لها ألس محذرة : « ستزجين بنفسك فى المتاعب
يوما ما من غير أن تشعرى » .

ـ ولماذا ؟ لقد حظيت بالاتصال بفتيان كثيرين جدا من
قبل كما تعلمين . وبعضهم كانوا من ذوى الخبرة الواسعة
جدا فى هذا الميدان ، ولكنى كنت أعرف دائما متى أوقفهم عند
الحد الذى اريده أنا !

ـ آه ! إن الفتيان المجربين ـ كما تسمينهم ـ جانبهم آمن
من جانب هؤلاء السذج المبتدئين . لأن المجرب لا يندفع بجهل
وحماسة فائقة كالساذج . والمسألة كلها فى جملتها ذات طابع
جنونى فى نظرى . فما أكثر الفتيان اليهود من حولك الذين

تستطيعين الاستمتاع معهم ، وهم أولى بالاستمتاع بك من هذا
العربى . ماذا مثلا عن ذلك الفتى الذى التقيت به فى المرقص
يوم السبت الماضى ورقص معك طول الوقت ؟ ما اسمه ؟

ـ دافيد ماركس! أنا لا أريده . فهو مغرور أكثر مما ينبغى،
ويخيل إليه أن كل فتاة واقعة فى غرامه . وهذا هو السبب
فى أننى رفضت أن أعطيه موعدا لأخرج معه . ولكن هذا الفتى
يختلف عنه فى كل شيء ، فهو خجول .. ولكنى سوف أعلمه
الجرأة فى الغرام !

ـ هذا ما يخيل إليك ! ولعله هو الذى سيعلمك درسا
لا تنسينه !

ولمعت عينا روزا ، واكتسى وجهها بابتسامة مشرقة وقالت :
« آه ! كم سيكون لذيذا أن أتعلم منه إذن ! » .. وبعد لحظة
تنهدت وأردفت : « انه جميل ! ظريف ! فاتن ! ولكنك
لا تدركين هذا لأنك لم تريه . عدينى أنك لن تخبرى « لين » .
عدينى ! » .

ـ لا تنزعجى . سوف لا اخبره . ولكن هذا لا يغير من
الواقع ، وهو أن المسألة كلها ليست على ما يرام . وستندمين
عليها يوما ما .

ـ اندم ؟ ولماذا اندم ؟ أنا أنوى أن احظى بمتعتى معه .
ولن يحول بينى وبين هذه المتعة أحد !



* * *

وفى الموعد المحدد ، يوم الجمعة ، وصلت الفتاة إلى المكان المعهود ، فاذا أنطون جالس ، وإلى جواره دراجة ! وعندما أبدت دهشتها بصددها ، صارحها بأنه وجد عقبات فى سبيل الخروج من البيت ليلقاها ، إذ قال بعد العشاء أنه يريد التوجه إلى بيت مدرسه الخاص السابق برهة هذا المساء ليستوضحه بعض نقاط النظرية الاقتصادية ، وإذا بجده يقول على الفور إنه يريد أن ينتهز هذه الفرصة للتنزه معه على قدميه بعض الوقت فى ذلك الاتجاه ، فلم يجد بدا من أن يزعم أنه سيذهب على دراجة ليمر أولا ببيت زميله لندلى الذى قضى معه فترة العطلة السابقة فى سويسرا .. وأضاف أنطون :

— وكان هذا صحيحا يا روزا ، لأنى كنت قد أخفيت عنده معطفك الواقى من المطر ، ولابد لى من إحضاره. وكل ما هناك انى لم أكن عازما على الذهاب بالدراجة ، بل بالسيارة العامة .

وتناولت روزا معطفها من يده قائلة : « ولكنى لا أفهم لماذا أخفيت المعطف عند زميلك ؟ » .

— لأنى لو أخذته إلى البيت عندنا لكان على أن اجيب عن عدة أسئلة : فأذكر لجدى وجدتى كيف تعرفت بك ، وكيف اننا سنتقابل مرة أخرى ، وهى أسئلة لا احبها .

فاستاءت روزا بعض الشىء ، وقالت بامتعاض : « أليس فى وسعك أن تغادر البيت إذن من غير أن تقول لهما إلى اين أنت ذاهب بالضبط ؟ » .



ولمعت عينا روزا ، واكتسى وجهها بابتسامة مشرقة وقالت : « آه ! كم سيكون لذيذا أن أتعلم منه اذن ! » ..

ـ ليس هذا سهلا ، لأنهما يحبان بطبيعة الحال أن يعرفا كل شيء .

ـ انا شخصيا لا أقدم أى تفسيرات عن تحركاتى . حسبى ان اقول انى خارجة !

ـ لعلنى لو كنت أعيش مع امى لم اكن مضطرا لهـذا . ولكن جدى وجدتى من الطراز القديم كما تعلمين .

ـ يبدو هذا .. أرى أن السماء ستمطر ..

وفتحت المظروف واستخرجت معطفها الواقى من المطر ، وساعدهـا هو على ارتدائه .. ثم قالت بتذمر : « لولا انك احضرت معك هذه الدراجة لكان فى وسعنا أن ندخـل دارا للسينما » .

ـ ليس فى وسعى على كل حال أن أتأخر فى الخارج إلى موعد انصراف السينما .

ـ لم يكن هناك إذن ما يبرر الحضور . أليس كذلك ؟

ـ أليس يكفى أن نتمشى قليلا ؟

فنظرت إليه نظرة محنقة ، ولكنها تقدمته صـوب أجمـة الشجر الكثيفة فى ركن المتنزه . وكان الهواء ثقيلا ، ومحملا ببوادر مطر ، ووجدت روزا صـعوبة فى السير على العشب الكثيف بكعبها العالى وحذائها المكشوف ، لأنها كانت قد رتبت نفسها على قضاء الليلة فى ركن خلفى متوار من دار للسينما ، كى تحظى منه بما تشاء من العنـاق واللمسات الغراميـة الساخنة .

وتوغلت به بين الشجر ، ثم نظرت حولها وقالت له : « فى وسعنا أن نجلس هنا » .

ـ ولكنى لا ارى مقاعد ..

ـ لا عيب فى الجلوس على الأرض .. هكذا !

وبجوار شجرة بلوط صـغيرة جلسـت ، أو بمعنى ادق اضطجعت على الأرض فوق كومة من الأوراق الجافة ، وأسند انطون دراجته إلى شجرة بعيدة ثم جلس على الأرض منتصب القامة بجوارها ، وهو يعجب كيف تقدم فتاة « محترمة » على شيء كهذا . فالمكان قذر . وهناك مجموعات من النمل ..

وبسرعة خلعت روزا صندلها ذا الكعب العالى وهى تقول بلهجة تأنيب :

ـ لقد كاد المشى يقتلنى .. والآن اقترب منى قليلا !

وقبل أن يتحرك كانت هى قد التصقت به وألقت برأسها على كتفه . ولكنه حسب أن كل ما ترمى إليه هو أن تتخذ من كتفه وسادة ، فلم يحـرك ساكنا .. فقـالت له فى إغراء : « ها أنت ترى المكان خاليا إلا منا نحن الاثنين » ..

ـ فعـلا ..

ولم يحرك ساكنا أيضا . وكانت تنتظر على الأقل ـ مهما كانت درجة براءته ـ أن يمد ذراعـه فيطوق عنقها وينحنى فيقبلها . وانتظرت لحظة ، ثم قالت له بصوت جاد : « أليست لديك أية فكرة عما يصنعه الفتى بفتاة فى خلوة ؟ » .

فارتبك أمام هذا السؤال المباشر المفضوح ، وضحك ثم قال : « هذه مسألة جديدة تماما بالنسبة لى .. وكل ما يساورنى الآن أن أنال منك قبلة .. إن كان هذا ممكنا : » . فرفعت وجهها إليه وقالت بهدوء : « ولماذا لا تنالها إذن » ؟

فطوقها بذراعه بغير قوة ، وقبل خدها . وكاد يبتعد عنها وقد فرغ من « مهمته » تلك ، وإذا بها تتناول وجهه بين يديها وتلتهم شفتيه التهاما بقبلة ضارية ، وقد دست لسانها بين شفتيه ، فكادت أنفاسه تلهث من الدهشة والمفاجأة ، واصابه دوار !

وأخيرا رفعت فمها عن ذلك المنهل الذى شربت منه بشراهة ، وقالت : « كم أنت لذيذ الطعم ! ولكنك طفل . طفل كبير ! » .

ــ اوه . انا آسف جدا إن كنت خيبت ظنك .

وعبثت اصابعها داخل حقيبة يدها واستخرجت سيجارة اشعلتها وجذبت منها نفسا قويا ، ثم قالت له : « أهذه أول قبلة تنالها من فتاة » ؟

ــ لم اقبل فتاة قبلك إطلاقا .

ــ الم تحدثك نفسك بتقبيل فتاة ؟!

ــ كلا .. إلى أن التقيت بك لم افكر فى ذلك . لم يخطر ببالى .. فالحقيقة أن أمور حياتى كلها كانت مضطربة جدا منذ غادرنا فلسطين .

ــ أحسب هذا هو السبب فعلا . لقد مرت بك تجارب سيئة .

ــ سيئة جدا . فظيعة . ولم تزل تتراءى لى الكوابيس إلى اليوم حول هذه التجارب المروعة .

ــ ولكن هذا كله قد انتهى الآن ، وفى وسعك أن تريح أعصابك وتتمتع بحياتك ، وقد صارت لك صديقة !

فرد على ابتسامتها بابتسامة وقال : « نعم . هذا شىء رائع حقا . فانى لم أستطع منذ فارقتك أن أفكر فى أى شىء سواك ! » .

ــ يجب إذن أن تفكر فى طريقة نجتمع فيها معا على صورة أوفق من هذه ، وأنسب ، وأدعى للانطلاق على سجيتنا . ما رأيك فى يوم الأحد ؟ !

فهز أنطون رأسه بوجوم ، وقال : « لا فائدة من المقابلات فى عطلة الأسبوع ، لأن أمى تحضر لدينا ويجب أن أكون بالقرب منها . وإذا لم تستطع الحضور مساء السبت ، ذهبت لمقابلتها فى المدينة بعد انتهاء الصلاة فى الكنيسة صباح الأحد ، ثم نخرج للنزهة وقضاء الوقت معا » .

ــ أتذهب إلى الكنيسة ؟ وهل أنت متدين ؟

ــ لست أدرى هل أنا متدين أم لا . ولكنى أحب الذهاب إلى الكنيسة . ألا تحبين أنت الكنيسة ؟

ــ أنا ؟ أنا لست أرثوذكسية !

ــ طبعا ، فأنت كاثوليكية ، لأنك من أصل أسبانى .

ــ أنا لست منتمية لأى كنيسة انتماء حقيقيا !



— لقد بدأ المطر يشتد . يجب أن ننصرف الآن من هنا .

— نعم . وأنا أيضا يجب أن أعود على كل حال .

ونهض وأنهضها . وكانت متأكدة أنه سينتهز فرصة التصاقها به هكذا عندما وقفت كى يقبلها ، مستفيدا مما تعلمه من قبلتها الساخنة ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، وتركها حانقة واتجه صوب دراجته كى يحضرها .

وعند موقف السيارة العامة أعطته الفتاة رقم تليفونها ، وافترقا من غير أن يتفقا على موعد آخر ، فقد قال لها إنه يجب أن ينصرف إلى الدرس ، ثم هو لا يستطيع أن يتقيد من الآن بموعد لأنه لا يعرف متى سيكون الظرف مناسبا للقاء ، وقد اقترب الامتحان ..

واتفقا على أن يتصل بها تليفونيا عندما يستطيع تدبير مكان وزمان مناسبين للخلوة السعيدة التى تحلم بها ..

— ٨ —

وكان أنطون يدرك تمام الإدراك أن هذه الفتاة روزا ليست من الطراز الذى يمكن أن يلتقى به فى دوائر آل منصور أو آل ملبى . وهو يعلم تمام العلم أنها من النوع الذى تطلق عليه جدته وصف « السوقية » . أما أمه فلم يكن متأكدا ماذا عسى أن يكون رأيها . وخطر له فجأة أنه فى الواقع يعرف عن تفكير جدته أكثر مما يعرف عن تفكير أمه . فهو على علم بطريقة تأثرها بأشياء كثيرة ، أما أمه فخيل إليه أنه لا يعرف عن رأيها فى معظم الأمور إلا أقل القليل !

وقال لنفسه : « ليس فى وسعى أن أخبرهم ، لأنهم لن يستطيعوا فهم حقيقة الموقف .. « اندلى » وحده يستطيع أن يفهم ذلك لأنه يميل للفتيات وصحبتهن ، من كل نوع ، ولا يقيم وزنا على الاطلاق للمقتضيات الرسمية فى التقديم والتعارف وما إلى ذلك . ولكن اندلى لا يحيط أسرته علما بمغامراته ، ويعمد إلى الكذب والخداع فى علاقاته تلك ! » .

روزا ! ما أحلاها ، بشعرها الغزير الحالك السواد ، وعينيها السوداوين الواسعتين ، والابتسامة التى تذكره كثيرا بابنة عمه نادية . لقد كان فى هذه المقابلة خجولا مرتبكا ، ولكنه فى المرة القادمة .. لن يتهيب ، ولن يستغرب الموقف، وسيبلى بلاء حسنا !

سيتصل بها تليفونيا فى الأسبوع القادم ويحدد معها موعدا ، ثم يذهبان معا إلى السينما كما اقترحت هى . وفى

الظــلام الدافىء الذى يكتنف قاعة السينما لن يشعر بالخجل الذى شعر به فى العــراء . سيجلســان فى الصــف الأخير وتشابك أيديهما و .. و .. يتبادلان القبلات ! لقــد رأى الكثيرين يصنعون مثل هــذا فى السينما . وكثيرا ما تباهى صديقه لندلى بأنه صحب فتيات إلى السينما ولم يروا شيئا من الفيلم المعروض ، لأنه كان يمثل معهن فيلما خاصا جدا !!

* * *

وعاد إلى البيت فألفى جده جالسا بجوار النافذة المفتوحة مشــغولا بمهمته الليلية التى يســميها « الانتهــاء من قراءة التايمس » ، فلما رآه جده داخلا طوى الصحيفة ، وسأله : « هل تمكنت من استجلاء النقاط الغامضة مع مستر جونز » ؟

ــ نعم . وشكرا لك . أين جدتى ؟

ــ فى الداخل تصنع الشاى .

ــ الجو حار جدا لا يصلح لتناول الشاى . ما أشبه هــذا بجو أريحا الخانق .. لقد أرهقنى جــدا ، ولذا أعتقد أنى سآوى إلى فراشى فورا ، إن لم يكن لديك مانع .. لأنى أشعر بصداع . ولابد أن الرعد هو السبب فيما أعانيه .

فأجابه جده وهو يستخرج غليونه من جيبــه ويشرع فى حشوه :

ــ ربمــا ..

* * *

وعندما أوى روبرت ملبى إلى مخدعه بعد ساعة ، خاليا إلى نفسه ، استلقى على فراشه وراح يحدق فى الظلام ، مفكرا فى الشخصين اللذين رآهما يخرجان معا من الغابة الصغيرة وهو يتمشى هذا المساء .. وكان هذان الشخصان : تلك الفتــاة ذات الشعر الفاحم والمعطف القرمزى الواقى من المطر ، وقد تابط ذراعها .. ابن ابنته !

كانت الفتــاة تضحك له ، وكان أنطون سعيدا منتشــيا بقربها ، حتى أنه لم يلمح جــده قبل أن يتوارى بسرعة وراء شجرة ، ثم يتسلل إلى أقرب حانة فيطلب كأسا مزدوجــة من الويسكى ، ليتغلب على المباغتة المذهلة التى منى بها . وما أن تلاشى الشعور بالمفاجأة حتى حل محله شــعور بالاســتياء الشديد .. لماذا فعل به أنطون هذه الفعلة ؟ لمــاذا كذب عليه منذ البداية فى شأن هــذا المعطف القرمزى القبيح الذى زعم له أنه وجده على احد مقاعد المتنزه ؟ ولماذا ادعى أنه حمله إلى مركز الشرطة ؟ لعل الصحيح أنه حمله إلى بيت زميله لندلى ، ثم استرده منه هــذا المساء ، فقد قال إنه ذاهب إلى هنــاك عندما خرج اليوم . ولكن لماذا كل تلك الأكاذيب والخدع ؟.. إن هذه أول مرة يشعر فيهــا بالاستياء والتأذى من حفيده . وها هو الآن يحملق منفردا بنفسه فى الظلام ويحاول أن يجد تعليلا لسلوك أنطون . وبدأ ينتحل له المعاذير :

ــ لم يكن فى وسع أنطون أن يخبرنى بأمر هــذه الفتاة ، لأنها قنيصة تصيدها من الطريق . وهو فى قرارة نفسه يعلم أنها شابة غير مناسبة له وغير لائقة لنا .. ولأنه يعلم ــ فيما لو

أخبرنا ـ أنه سيكون مضطرا لمكاشفتنا بكيفية تعرفه إليها ، ولن يكون ذلك مستساغا .

ثم شرع بعد ذلك ينظر إلى هذه العلاقة فى ضوء عملى بحت :

ـ ولكن ماذا عساه يصنع مع مثل هـــذه الفتاة ؟ إنه فتى وسيم ، وما اكثر الفتيات اللواتى يتمنين مصادقته من بنـــات الأسر ، فى محيطه ومحيطنا . وإنه ليلقى الكثيرات منهن كل يوم ، فما حاجته إلى التخفى فى الآجـام والغابات مع هـــذه المخلوقة المبتذلة ؟

وانتقلت أفكاره إلى ابنته ، والدة أنطون : « وماذا عسى أن تقول ماريان فى هذا لو أنها علمت به ! وهـــل ينبغى أن تعرف ؟ انه لمن المستحيل مكاشفة ماريان وإخفـــاء السر عن الزبيث .. وإن لم يكن من المستبعد أن تشجع ماريان ابنهـــا على مثل هـــذه العلاقة ـ بصرف النظر عن كنه الفتاة نفسها وصفاتها ـ طمعا فى المباعدة بينه وبين فكرة قضـــاء سنة التمرين فى الأردن . ولعلها فى هذا على حق » .

ومرة أخرى عاد إلى علاقته هو بهذه المسألة : « ولكن لماذا أخفى أنطون على أنا هذه العلاقة ، ولو كلفه ذلك الإخفـــاء الكذب ، وأنا صديقه وصفيه الحميم ؟.. هل أشعرته فى أى يوم من الأيام بما يدفعه إلى الحذر منى وإخفاء خصوصياته عنى ؟ أم لعل السبب اننى فى مقام والده بعـــد وفاة بطرس منصور ، ولذا فهو يستحى من مصارحتى بمثل هذه الشئون ؟ ثم ما العمل الآن ؟ هل ألزم الصمت وأترك الأمور تجـــرى فى

أعنتهـــا ؟ أم أجابه الفتى بكل ما أعرفه ، وأقول له صراحة : « لماذا كذبت على ؟ لماذا خدعتنى ؟ ومن هذه الفتاة السوقية ؟ وما هى نواياك حيالها ؟ » .. لا . لا . إن ذلك كله سخيف جدا ، فنحن الآن فى سنة ١٩٥٣ . حمانا الله وكان فى عوننا ! إنه حكم الزمن .. وليس من الجـــائز إحراج الفتى بهـــذه الصورة القاسية ، فذلك قـــد يدفع به إلى علاقـــة أوثق بتلك الفتاة .. فبعد أن يكون مكتفيا بأحضانها فى الحديقة ، يندفع إلى التقلب بين أحضانها فى الفراش ! ثم إن ذلك من شأنه أن يسدل ستارا حديديا بينى وبينه إلى الأبد . فمن الخير إذن أن ندع المسألة تأخذ مداها بدون تدخـــل .. ولنرقب وننتظر ما يتمخض عنه الغد .. من غير قلق ، على حد تعبير ابناء هذا الجيل .. : « دع القلق ... واستأنف الحياة ! » .





فيفرش البطانية على الأرض فى مكان منزو بين الأشجار الملتفة

ـ ٩ ـ

كانت « السى مايير » مخلصة فى وعدها الذى قطعتـــه على نفسها بألا تبوح بسرها لروزا . ولكن من الأسرار نوعا معينا تدخل فى تكوينه « أحماض كاوية » ، تحفر لنفسها مســارب تتسرب عن طريقهـا من الخزائن التى تودع فيهـا داخـل السريرة .

والحق أن (ألس) كانت فى حالة « انسجام » تام مساء ذلك اليوم من أيام السبت ، وهى جالسة مع « لين » (شقيق روزا) فوق شرفة الفندق الواقع على شاطئ النهر فى (ريتشموند). تحتسى كأسها الثانية من « الجين » .. تلك الكأس الثانية التى تقول ألس دائما انها تجعلها فى حالة « انسجام » تام !

ومن عادة « لين » أن يأخذها فى سيارته الصغيرة فى نهاية كل أسبوع ـ فى حالة اعتدال الطقس ـ ويترك السيارة فى رحبة الفندق ، ويجلسان فى الشرفـــة مطلين على النهـــر ، ويشربان بضعة أقداح مترعة من الشراب القوى ، ثم ينتقلان إلى قاعة المطعم بالفندق فيتناولان عشاء طيبا . وكان من أهم ما يحبب « لين » إلى « ألس » أنه ينفق فى صحبتها بسخاء . وبعد العشاء يستقلان السيارة إلى تـــل (رتشموند) الذى تكسوه الخمائل ، وبه حديقة واسعة . وهناك يتركان السيارة ويأخذ « لين » من حقيبــة السيارة معطف مطر وبطانية ، فيفرش البطانيـــة على الأرض فى مكان منزو بين الأشجـــار الملتفة ، واما المعطف الواقى من المطر فانهما يلتحفانه معا فى

حالة هطول الأمطار ، وينصرفان وهما فى حالة « الانسجام »
— من الخمر والطعام الجيد الذى يدفىء أوصالهما — إلى
ألوان من « العناق » و « اللمسات » الحامية الوطيس . وهذا
العناق « الساخن » هو العنصر الرئيسى فى برنامج الليلة
باستمرار .

وكانت « ألس » تزهو دائما بأنها تعرف فى جميع الأحوال
أين تقف ، وأين توقف «الطرف الآخر» عند حده ، وإن كانت
تعترف أن المسألة كلها محفوفة بالمجازفة ، وأن المجازفة تبدو
فى أحيان كثيرة مفزعة ، ولكنها تتنهد وتحمد الله على
« السلامة » فى آخر لحظة ! ولكنها تعلم أن الحزم — مهما
كان قاسيا على نفسها — فهو لازم وواجب ، لأنها بفضل هذه
الخطة تطمع فى إرغام « لين » على الزواج بها يوما ما ، كى
يتخلص من هذه « التحريمات » المؤلمة . فإن عاجلا أو آجلا
سيصرخ لين :

— لم يعد فى وسعنا الاستمرار على هذا النحو !

وهى واثقة انه فى حماسة الحرمان سيعلن خطبتهما
رسميا !.. وهى تتوقع أن يحدث هذا الإعلان فى أى مساء
من أمسيات السبت .

وكانت تأمل كثيرا أن يتم هذا فى هذه المرة بالذات ، لأن
« لين » كان « مشتعلا » للغاية منذ غادرا الفندق ، ولم تكف
يده عن تحسس أعطافها اللدنة فى المواضع الحساسة وهو
يقود السيارة ، قبل أن يصلا إلى فندق ريتشموند كالعادة ،

مما حرك مشاعرها . وحين تتحرك مشاعر امرأة نحو رجل
ما فلن تقوى طويلا على الكتمان .

وفى منتصف كأس « الجين » الثانية قالت له بغموض :
« لن تستطيع أن تخمن من هو آخر خلان أختك روزا ! » ..

ولم يثر فضول « لين » ، لأن أخته روزا تصاحب عددا
لا حصر له من الخلان ، الواحد بعد الآخر ، وقال بلا مبالاة :

— ليست لدى أية فكرة طبعا . ولماذا أهتم بأصحاب
أختى ؟.. إنها لم تكن جادة فى صلتها بأى واحد منهم ..
وإنما هى ضمات ولمسات عابرة فى ركن مظلم من السينما أو
فى المقعد الخلفى من سيارة أحدهم ..

وضحك لين وهو يقرص موضعا فى جسم « ألس »، وقال :
« أنا أعرف أختى الصغيرة .. وحبها لهذه « المسألة » ! » .

— سواء كانت جادة أو غير جادة ، فسيدهشك ، بل
سيذهلك ، أن تعرف هذا الصاحب الأخير ..!

فبدا عليه الاهتمام وقال فى توجس : « لا تقولى لى إنه
متزوج ! » فقهقهت ألس وقالت : « متزوج ؟! بالعكس ! إنه
لم يزل تلميذا فى المدرسة .. عمره ١٨ سنة ! بل اقل
من ذلك ! » .

— هل انقلبت أخيرا إلى « خاطفة أطفال » ؟ ولكن لا شأن
لنا بهذا ، ما دام هذا اللون من المتعة يروقها ! هيا اشربى
بقية كأسك كى ننهض إلى قاعة المائدة .

فأمسكت « ألس » بكأسها ولكنها لم تشربها ، بل قلبتها فى يدها وقالت بلهجة ذات مغزى : « أنت لم تفهم غرضى بعد ! » .

ـ بل فهمت ! روزا تصاحب تلميذا صغيرا . وماذا فى ذلك ؟ هى حرة فيمن تختارهم لمتعتها الخاصة !

ـ ولكنه لاجىء .. من فلسطين !

ـ اية ؟ ماذا تقولين ؟ هل هى التى قالت لك هذا ؟

ـ وكيف كنت خليقة أن أعلم ؟

ـ لابد أنها جنت !

ـ هذا بالضبط ما قلته لها أنا !

ـ وماذا قالت لك ؟

ـ قالت ما معناه أن اليهود والعرب ينبغى ألا يتباغضوا ؛ وكانت تشعر بمنتهى العطف عليه وعلى قومه !

ـ تعطف عليه ؟ على عربى ؟

ـ لأن أسرته فقدت كل ممتلكاتها عندما اضطرت للهجرة من اللد .

وشربت السن كأسها وقالت له باسمة : « أفلا ننهض ؟ » . ولكنه فى هذه المرة كان هو الذى تباطأ ، وبدا وجهه شاحبا جدا من فرط الغضب ، وقال لها بعنف : « أمامنا ما هو أهم ! لابد أنه يصب فى أذنيها دعايته المسمومة ضد الصهيونية وضد إسرائيل ! » .

ـ ولكن مالنا ولهذا ؟ اننا لا نستطيع شيئا ، فهيا بنا نأكل .

ونهضت ، فلم يجد بدا من النهوض بحركة عنيفة ، فأسقط كوبا على الأرض لشدة تخبطه وهو يقول : « ألا نستطيع شيئا حقا ؟ سترين ما سأفعله ! » .

وشعرت « ألس » بالخوف الشديد ، لأن روزا لن تغتفر لها هذه الخيانة . ولكنها هزت كتفيها وقالت لنفسها : « ما كان لها أن تبوح لى بهذا السر على كل حال ، وهى تعرف أنى صهيونية متحمسة مخلصة لمبادئى وعقيدتى ! أوه . كنت أتمنى لو عقلت لسانى ولم أفش سرها ، ولكن الكأسين جعلا الكتمان مستحيلا .. ثم لمسات « لين » .. وكل شىء !

* * *

وصمم « لين » على أن يصفى الموضوع مع روزا هذه الليلة بالذات . ولم يخض فى أى موضوع آخر على مائدة العشاء ، ولم يحاول مرة واحدة أن يمد يده خلسة تحت مفرش المائدة ليتحسس ركبتى « ألس » كعادته ..

وبعد لقيمات قليلة كف عن الطعام ، وقال : « أشعر بانزعاج شديد . لن أصلح للذهاب معك الليلة إلى الحديقة . أعصابى فى غاية التصدع . ويجب على أية حال أن أذهب إلى البيت مبكرا هذه الليلة » .

ـ ولماذا ؟

ـ كى أكون فى انتظار هذه العاهرة الصغيرة عند عودتها !

ـ ولكنى لا أعتقد أنها تقابله فى أيام السبت .

ـ أنت لا تعرفينها إذن ! انها لا يمكن أن تدع يوم السبت يمر من غير أن تتمرغ فى أحضان فتى يروقها ! ولم أرها تخلف عادتها هذه سبتا واحدا منذ تركت المدرسة

ومدت « ألس » يدها من تحت مفرش المائدة ، وضعتها على فخده ، محاولة استدراجه ، وقد مالت إلى الأمام بشدة فوق المائدة ، فبدت له من فتحة صدرها العارية مفاتنها التى كان يتحرق عادة إلى اجتلائها ، ولكن سحنته المربدة لم يبد عليها التأثر بما يلمس ولا بما يرى ، فقالت : « هيا تسمع منه دعاية ضد الصهيونية ، ففى مقدورك أن تصحح لها تفكيرها بسهولة بعد ذلك ، من غير أن تفسد علينا لذتنا الأسبوعية بهذه الصورة » .

ـ يا لك من حمقاء ! أليست امرأة ؟ هل تعتقدين أن الفتاة المفتونة بشاب يمكن أن تعير سمعها لما يقوله أخوها ، إذا كان مناقضا لما يقوله خليلها فى لحظات الانسجام ؟

ـ أرجوك . لا تكن مفرطا فى قسوتك على روزا ! إنها مسألة هينة جدا .. هينة للغاية ! إنه تلميذ صغير !

ـ لا فائدة من هذا الكلام كله ! هذه مسألة خطيرة جدا . ويجب وضع حد لها . وسأضع حدا لها .

ـ لست أدرى كيف يمكن هذا ! ماذا ستفعل ؟

ـ سأروعها ! سأفزعها بحيث لا تجسر بعد ذلك على الاتصال به .

ـ إنها ستكرهك إلى الأبد ! لن تغفر هذا لك !

ـ لا حيلة لى فى هذا . ومن ذا الذى يبالى بالحب أو الكره ؟ إن فى الدنيا أمورا أهم من هذين بكثير ..

— ١٠ —

والواقع أن روزا روعت ارتياعا شديدا ، حتى أنها بعد خطة التحدى الفريزية التى اتخذتها لأول وهلة إزاء أخيها ، دفاعا عن حقها فى الحرية الشخصية فيما يتصل بعلاقاتها بالجنس الآخر ، على حسب تقاليد بيئتها ، ثابت إلى خطة أخرى مناقضة لها تماما ، فتعهدت بألا ترى « أنطون » بعد ذلك أبدا ، فيما عدا مقابلة أخيرة تودعه فيها . بيد أن أخاها ظل ثابتا على موقفه الحازم ، مصمما على ألا تراه حتى ولا تلك المرة ، وقال لها :

ـ خبرينى أين ستقابلينه يوم الاثنين وسأذهب أنا إليه واشرح له الموقف . وسأعرف كيف أشرحه له جيدا !

وكانت قد اتفقت مع « أنطون » على اللقاء على ذلك المقعد المواجه للبحيرة ـ فى المتنزه العام ـ فى منتصف التاسعة . وكانا قد التقيا يوم الأربعاء السابق عند محطة السيارات العامة ، وتوجها على الفور إلى دار قريبة للسينما . وكانت « الحفلة» ناجحة جدا، فلم يريا شيئا من الفيلم لفرط انهماكهما فى « عرض خاص » بهما ، وبلغ من هذا النجاح أنهما اتفقا على المقابلة عند البحيرة يوم الجمعة ، وذهبا فى هذه المرة إلى الغابة .

ولكن الخلوة فى الغابة هذه المرة كانت مختلفة تماما عن أول خلوة لهما هناك . لقد زايل أنطون حياؤه تماما ، حتى لقد شعر الاثنان أنه سيصعب عليهما الصبر على التباعد مدة عطلة

الأسبوع ـ حتى يوم الاثنين الذى تواعدا على اللقاء فيه أمام البحيرة ، ليكررا زيارة الغابة ـ وقد بات أنطون لا يرهب الغرام فى العراء . والحق أن افتتان كل منهما بالآخر ، أو بالمتعة التى يجدها بين أحضانه بمعنى أدق ، كان بالغ التأجج ، ولكن لم يكن من ذلك الصبر مفر حتى يوم الاثنين .

وها هو أخوها « لين » ينتزع منها هذا الوعد الفظيع بألا تراه ولو تلك المرة الأخيرة ، ولكنها صممت بينها وبين نفسها على أن تذهب للقائه تلك المرة ، ولو كان فى ذلك هلاكها ، ولذا كتمت عن أخيها مكان اللقاء !

وخرجت يوم الاثنين من البيت فى ساعة مبكرة جدا ـ قبل خروج أخيها ، حتى لا يتبعها ـ وظلت فى المتنزه زهاء ساعة تنتظر حضور أنطون ، وهى متوجسة أن تكون الخائنة الواشية « السى » قد باحت أيضا بمكان التلاقى ، فتفاجأ بأخيها « لين » وقد جاء متسللا إلى هناك ، ولذا حرصت على التوارى خلف مجموعة من الأشجار ، وهى فى حالة يرثى لها من التوتر العصبى ، إلى أن حضر « أنطون » قبل الموعد المضروب ببضع دقائق .

ولكم ادهشه أن يراها تبرز له فجأة من وراء الأشجار ! ولكن الدهشة لم تلبث أن أخلت مكانها للفزع عندما رأى الامارات البادية على محياها وهى تقترب منه ، وسألها : « ما الخبر ؟ هل هناك ما يروعك ؟ » .

ـ نعم . كل شىء . كل شىء على غير ما يرام . هيا بنا نمضى إلى الغابة .. وهناك سأشرح لك كل شىء .

وتبعها إلى الغابة وهو يغالب القلق ، متصنعا المرح ، وسألها : « ما المسألة ؟ ولماذا تسرعين هكذا ؟ » .

ـ كى نختفى .

ـ نختفى ؟ ممن ؟ ومم ؟

ـ من أخى ...

وزادت من سرعتها ، فلم يسعه إلا أن يلاحقها . وفى جوف الخميلة الملتفة هدأ من روعها قليلا بعد أن تلفتت حولها واطمأنت إلى أن أحدا لا يتعقبها . وسألها مرة أخرى : « ولماذا يجب أن تختبىء من أخيك ؟ » .. ولكنه لم يترك لها فرصة للجواب ، بل جذبها إليه على الأرض المعشوشبة ، وأغلق فمها بقبلة منهومة أصابت رأس « روزا » بدوار ، وظلت بعدها عدة ثوان مبهورة الأنفاس ، لا طاقة لها على الكلام ، فقال لها :

ـ لقد قضيت هذه الأيام على أحر من الجمر من شدة الشوق إلى الاجتماع بك مرة أخرى ، أيتها الفاتنة الحلوة روزا !

وتشبثت به فى وله ، وشرعت تبكى وهى تقول له : « آه يا حبيبى أنطون ! كم أنا شقية معذبة بسبب حبك ! » .

ـ ما المسألة ؟ ما الذى يزعجك ؟

ـ لقد أرغمنى أخى على أن أقطع صلتى بك ، وقال لى إننى لو حاولت مقابلتك بعد الآن فسوف يتعقبنى أو يكلف من

يتعقبنى ، إلى أن يعرف محل إقامتك والمدرسة التى تدرسين بها .. وسيضربك !

— يضربنى ؟ ولماذا ؟ هذا شىء عجيب . ثم إن ضربى ليس مسألة سهلة إلى هذا الحد . ففى وسعى أن أقاتل قتالا مشرفا عند اللزوم . ولكن ما هى المسألة من بدايتها على كل حال ؟

فقمعت روزا دموعها ثم سألته بصوت خافت : « هل تحبنى حقا يا انطون ؟ » .

— طبعا . وانت تعلمين ذلك . هل نسيت بسرعة ما كان بيننا فى المرة الماضية ؟

— الا يمكن لأى شىء أن يغير من هذا الذى بيننا ؟ أعنى لو فرض واكتشفت اننى لست تلك التى تظاهرت أمامك أنها هى .. وان اسمى ليس حقيقة « روزادو » .. وانه ما من قطرة دم اسبانى واحدة تجرى فى عروقى ، واننى اختلقت ذلك كله ..

فتناول إحدى راحتيها وطبع عليها قبلة حانية ، وهو يقول : « يا لك من فتاة مضحكة ! هل اختلقت كل ذلك حقا ؟ » .. فأومأت برأسها إيجابا .. فضحك وقال : « وإن لم تكونى « روزا روزادو » ، فمن انت إذن ؟ » .

— أوه ! ستكرهنى إن قلت لك من أنا فى الحقيقة !

— ربما كرهت الاسم إن كان فظيعا ، ولكن ذلك لن يحملنى على كراهيتك . هيا . هيا . قولى ما هو .. انه بلا شك اسم من تلك الأسماء البلهاء المضحكة ..

فقالت فى صوت ينم عن اليأس : « روزنبرج . اسمى روزا روزنبرج . وأخى « لين » صهيونى متعصب . وهذه هى المسألة من أولها إلى آخرها . وقد أبلغه شخص ما بالعلاقة التى بيننا ! » .

فأسقط يدها من يده وحملق فيها غير مصدق أذنيه : « هل انت يهودية ؟ » .. ومرة أخرى أومأت برأسها ، وقد ثبتت عينيها فى عينيه ، والجزع اليائس مستول عليها ، وقالت بصوت يكاد لا يسمع :

— لا حيلة لنا فيما ولدنا فوجدنا عليه آباءنا !

ولما وجدته صامتا لا يجيب : أردفت : « إن كان لا يهمنى انك عربى ، فلماذا يهمك أن أكون يهودية ؟ » .. فدفن وجهه بين يديه ، محاولا إقصاء المشاهد التى تزاحمت أمام ناظريه ، وراحت أصوات الطائرات السوداء الصغيرة تطن فى أذنيه ، وهى تزداد اقترابا وانقضاضا !

وأحس فجأة ببرودة تسرى فى أوصاله ، وارتجفت أعضاؤه ، وحاول أن يرغم نفسه على النظر إليها وهى مسترخية بجواره على الأرض ، وشعرها الفاحم الغزير الجميل يحيط كالهالة بوجهها الجميل الشاحب ، وعيناها السوداوان الكبيرتان كأنهما بحيرتان من الدموع .. تراءى له هذا كله ، وبقدر ما كان كله عزيزا عليه منذ لحظات قليلة ، لم يعد الآن يرى له معنى .. أو يحرك ساكنا !

واستجمع شتات إرادته ليقول شيئا : « المفروض فى الظروف العادية الا يهمنى شىء من هذا . أى لو أن اليهود لم

يغتصبوا وطنى ، ولم يفعلوا بنا ما فعلوا . أما وقد عرفت الآن حقيقتك، فمن المستحيل علينا أن نستمر فى علاقتنا هذه . والذنب ليس ذنبك طبعا ، ولكنه حظنا العاثر .. فلن يكون فى وسعى أن أرى فيك بعد الآن «روزا روزادو» التى أحببتها!» .

وأعياه أن ينظر إليها ، فأرخى نظراته وثبتها على كعب حذائه ، وعلى خنفساء صغيرة سوداء كانت تدب على الأرض ببطء وسط تيه من الأغصان الجافة والأوراق الميتة .. وأسراب من النمل تدب أيضا فى ذلك التيه .. إنه التيه .. التيه .. التيه .. فى البرية !

ونظرت إليه روزا وقد قسا قلبها وتحجر ، وعندما تكلمت كانت ألفاظها وعباراتها أشبه بالشواظ الملتهب .. بل أشبه بالبصقات .. تلك البصقات التى رمت بها المرأة الإسرائيلية المجندة أباه يوم الرحيل المشئوم عن اللد .. وقالت له بمرارة : « إنه التعصب ضد الساميين ! » .

فنظر إليها بأسى وقال : « هذا مستحيل طبعا . لأن العرب أيضا ساميون ! » .

ـ وإن يكن .. فأنتم تكرهون اليهود على كل حال !

ـ ليس لأنهم يهود . كلا . فقد كنا لا نكرههم قبل النكبة. وكان فى فلسطين يومئذ يهود كثيرون ، وفى مدرستنا كان اليهود يدرسون مع المسلمين ومع المسيحيين جنبا إلى جنب بلا تفريق فى المعاملة . ثم جاءت النكبة ، وتغير كل شىء !

ونهضت قائمة على قدميها ، وهى تنضو الأوراق الميتة عن ثوبها المصنوع من القطن ، ذلك الثوب الذى تتخيره واسعا جدا

فى نصفه الأسفل ، لأغراض لا تخفى ! .. كذلك نهض أنطون وراح ينفض الشوائب عن ثيابه ، وهو ينظر إليها بشرود .. أهذه حقا هى الفتاة التى رآها تبرز من خلف الأشجار منذ أقل من نصف ساعة ، فقفز قلبه لمرآها ورقص رقصة الحبور واللهفة والحنين ؟ أهذه هى الفتاة التى كان منذ دقائق معدودة يرشف الرضاب المستطاب من بين شفتيها اللدنتين وهو يحسب أن لذات الدنيا ألقت إليه مقاليدها ؟

لكم يبدو له كل هذا الآن وكأنه حلم أو سراب ! فها هى ترنو إليه كسيرة الخاطر ، ساخطة عليه لأنه آذى احساسها ، ولكنه ــ يا للعجب ! لا يستطيع أن يشعر نحوها بأى شفقة أو رحمة . فكل ما يحسه إزاءها هو الاستنكاف والقنوط .

وفيما هما يعودان إلى الأرض المكشوفة فى المتنزه، قالت له : « لم يدر بخلدى فى وقت من الأوقات أن هذا اللقاء سيكون لقاء الوداع. أو أن الوداع سيكون على هذه الصورة . وكنت أؤمل دائما أن أجد ثغرة أستطيع أن أنفذ منها إلى استمرار علاقتنا، برغم كل شىء ، غير مبالية بغضب شقيقى . لأنى كنت أخالك لن تبالى بأننى يهودية ما دمت تحبنى حقا » .

ـــ يؤسفنى أن هذا مستحيل !

وعندما صارا فوق الممر المفروش بالرمل، قالت له : «لا تأت معى إلى محطة السيارة العامة . لا حاجة بك إلى ذلك . فمن

الخير الا يرانا أحد جهارا ، فربما كان « لين » كامنا لنا هنــا أو هناك . فقد أقسم أن يقتلك ضربا لو وقعت عينه عليك ! » .

— أنا لا أخشى أخاك !

ووقفت لا تتحرك ، ثم قالت بصـــوت متحشرج : « هـــو الوداع إذن ؟ » .

— نعم !

— ليكن إذن ما تشاء ! وداعا !

وأدارت له ظهرها فجأة من غير أن تمد يدها أو يمد يده ، وراحت تحث الخطى إلى محطة السيارات العامة ، من غير أن تنظر خلفها .. ولم يرقبها أنطون وهى منصرفة ، بل سار على مهل وهو مطرق إلى الأرض . كان الأسى يملأ قلبه ، ممزوجـــا بالحنق والضيق الشديد . وراح يتساءل هل سيجد فى نفسه الشجاعة الكافية كى يخبر وليدا بهذه المغامرة ؟

وإذ ذكر وليدا استولى عليه فجأة حنين جارف إلى الأردن .. إلى فلسطين . وســـاوره ندم صارم لأنه فى الأسابيع القليلة الأخيرة لم يفـــكر فى فلسطين !.. لقـــد أجلت هـــذه العلاقة الحسية المشبوبة أفكاره الوطنيـــة عن ذهنـــه ، فانزوت فى مؤخرة رأسه !

أجل ! لم يستطع فى هذه الأسابيع أن يفكر فى شىء ســـوى روزا ، واستولى عليه احساس بالاثم والخزى من نفســـه .

وأحس أن وليدا لو عرف عنه هـــذه السقطة لاحتقره أشـــد الاحتقار .. لا لأنه أحب فتاة هذا الحب الشديد ، بل لأنه سمح لهذا الهوى أن ينسيه الهدف الأكبر ، بل الأوحد ، لكل عربى فلسطينى جدير بهذا الاسم .. وذلك الهدف هو تحرير فلسطين .. وهو يتمثل بالنسبة لهما فى طريق بئر سبع ..

وعندما اقترب من الدار ، رأى جـــده جالسا بجوار النافذة المفتوحة يتصفح « التايمس » .. وخامره احســـاس غلاب ، ولكنه احساس أورثه راحة شديدة ، بأنه سيعترف له الآن بكل ما أخفاه عنه من قبل !

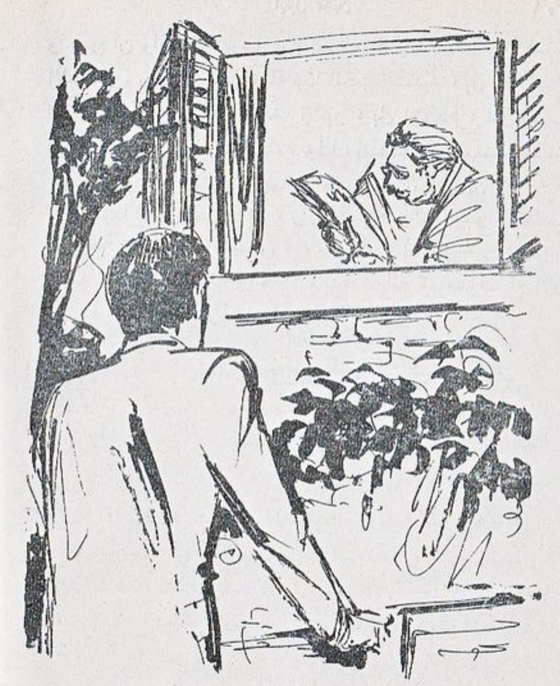


— ١١ —

اكب أنطون على الدرس والاستعداد للامتحان ، عسى أن يجد فى ذلك ما يصرفه عن التفكير فى هذه العلاقة المؤسفة ، ولا سيما بعد أن سرى جده عنه ، وصارحه بأنه كان يعرف ما يجرى وراء ظهره منذ البداية تقريبا ، وكاشفه بأنه رآه مع الفتاة بعد أول خلوة لهما داخل الغابة ، ولكنه آثر الصمت والانتظار إلى أن يبوح له شخصيا من تلقاء نفسه بما هناك !

وأدى أنطون امتحانه بنجاح ، وطلبت منه والدته أن يمضى جزءا كبيرا من عطلته معها. وسره ذلك ، فامه لا ترهقه عاطفيا بصحبتها ، لأنها مشغولة فى الغالب بأعمالها . وهو لا يشعر بأنه يعرف عنها الكثير . بخلاف جديه اللذين يقضيان الوقت كله معه ولا يدعان له خلوة أو استقلالا بالمعنى الصحيح . ومع هذا التباعد ، كان ثمة شىء عميق بينه وبين أمه ، شىء أعمق من الرابطة التى بين الأم وابنها الوحيد . وهذا الشىء يقوم فى جوهره على التجربة المشتركة والمحنة المشتركة : محنة الهجرة ، والمسيرة المميتة فى البرية ، وأعباء النكبة وآثارها ، بما فى ذلك آثار الاغتراب فى أريحا .. ووفاة عائلهما الحبيب بطرس منصور .

وفى الأيام الأولى التى قضاها فى مسكن أمه الخاص ، بوسط لندن ، كتب أنطون إلى وليد يقص عليه ما كان من أمر روزا :



وعندما أقترب من الدار ، رأى جده جالسا بجوار النافذة المفتوحة يتصفح « التايمس » ..

« إن جدى يعتقد انى كنت قاسيا على الفتـاة ، جائرا فى معاملتها . ولعلنى كنت كذلك ، ولكن ما حيلتى فى ذلك ، ولم يكن هذا البتر الحاسم إلا إجراء ضروريا لا محيص عنه . لقد كانت الحقيقة المفاجئة التى تكشفت لى صدمة عنيفة ، أعادت إلى وجدانى المأساة الكبرى بكل ما فيها من مرارة وقسوة وعذاب .. لم أعد أحس إلا بان تلك الفتاة واحـدة من ذلك الجنس الذى اغتصب ارضنا ، والغى وجود وطننا ، وشردنا بلا رحمة ، وبلا حق ، وبلا ضمير !

« وانا لم ابح بهذه المسألة المحزنة لأحد سـوى جـدى وسواك . وكنت قد أخبرت زميلا لى فى الدراسة ببداية هـذه العلاقة ، ولكنى كتمت عنه نهايتها ، واكتفيت بقولى له اننا افترقنا لتعذر الاتفاق بيننا فى الطباع !.. والحقيقة انى كنت عاجزا عن الدرس أو التفكير فى اى شىء ، وانا فى تلك الدوامة التى جرفت حواسى فجاة . تصور انى لم اكن قادرا حتى على التفكير فى فلسطين ؟!..

« أما الآن ــ وقد انجلت هذه الغاشية ــ فانا فريسة ندم شديد وخجل اشد ، لأن مثل تلك العلاقة الحسية استطاعت أن تستولى على زمامى إلى هذا الحد ، أعنى إلى حد نسيان قضية فلسطين وخطة بئر سبع . وإلى حد انى خدعت جدى وكذبت عليه ، وهو الذى أحبه حبى لأبى الراحل .

« وأعجب ما فى الأمر انى لم أستبشع الكذب والخـداع

وأنا فى غمرة ذلك الهـوى الجـارف ، بل وجدتهمـا أمرين طبيعيين جدا . أما الآن فانى لا أتصـور كيف أقدمت على ذلك .. وبهذه المناسبة لم يخطر ببالى ــ فى هذه السنوات الأربع ، وأنا بعيد عن الاهتمـام بالفتيـات ــ أن تكون لك علاقة بفتاة . أما الآن وقد حدثت لى هـذه المغـامرة ، فإنى أتساءل : أليست لك فى الأردن فتاة تهواها ؟ وإن كان ذلك صحيحا ، فهل تعـرف كيف تهتم بعملك وخططك الوطنيـة وافكارك ومطالعاتك كالعادة ، وأنت فريسة هذا الهوى !

« ومنذ أيام كنت واقفا مع والدتى فوق جسر لندن ، ننظر إلى ما يسمى « البركة » من تحتنا ، حيث تفرغ سفن قادمة من شتى انحاء المعمورة حمولتها ، فتتلقفها منها سيارات النقل لتمضى بها إلى كل مكان فى إنجلترا . ورأينا سـفينة سويدية تفرغ حمولة من الأخشاب ، وإلى جوارها سـفينة بيضـاء صغيرة حديثة جـدا ، وتساءلنـا من أين عساها جاءت ، وإذا بنا نتبين أنها سفينة إسرائيلية محملة بالموالـح . وفى الحال انصرفنا ونحن فى منتهى الألم ، لأنا لاحظنـا وجـود كميات كبيرة فى الأسـابيع الأخيرة من البرتقال « اليافاوى » فى متـاجر لندن . وقد يكون جانب منه مجلوبـا من مزارع آل منصور بالذات !

« وتحاول أمى أحيانا أن تشرح لأصحاب المتاجر وللبائعين حقيقة الموقف ، وقد حدث من هذا القبيل ذات مرة أننا ذهبنا معا لنشترى بعض الأزهار لتزيين شقة ماما ، ولكن الأزهار

التى اختارتها والدتى كانت من نوع فادح الثمن وتسمى « جلاديوليس » ، ولذلك سألت عن مصدرها فقيل لها انه.. من « إسرائيل » ، فقالت أمى للمرأة التى تتولى البيع :« إن فداحة الثمن سبب للإحجام عن الشراء . ولكن كونها من إسرائيل سبب أدعى للامتناع عن شرائها ، فاسرائيل كما تسمونها ليست سوى فلسطين المحتلة . وانا شخصيا أرملة فلسطينى كان واحدا من بين مليون عربى لاجىء طردوا من ديارهم واغتصب اليهود وطنهم ، من غير أن يفكر أحد فى مصيرهم ، ولا حتى فى تعويضهم . مع أنه ما من مال ــ مهما عظم مقداره ــ يمكن أن يعوض الناس عن وطنهم وشخصيتهم القومية » .

« ودهشت المرأة لهذا الذى سمعته ، وقالت إنه لم تكن لديها أدنى فكرة عن هذه الأوضاع . بل لقد استعملت كلمة « فظيع » فى نعت ما حدث من اليهود . ولكن عندما مررنا من هناك بعد أسبوع ، وجدنا أزهارا جديدة من نوع « الجلاديوليس » فى المتجر ، ووجدنا من البرتقال «اليافاوى» أيضا فى قسم الفواكه التابع للمتجر نفسه !

« وأنا اعتقد أن معظم الناس هنا فى إنجلترا لا يعرفون حقيقة الصهيونية . ولكن الأدهى من هذا أنهم لا يبالون حتى لو عرفوا تلك الحقيقة المرة ، لأن اليهود هنا منبثون فى كل مكان ولهم اتصالات كثيرة ، أما العرب فهم بعيدون عنهم ولا يعرفون عنهم شيئا إلا بالسماع ، أو عن طريق التخيل ، باعتبارهم سكان صحراء ورعاة ابل ! أو على الأكثر أهل مغامرات على طريقة افلام ابن الشيخ !

« أجل ، ليس من السهل على الإنجليز أن يحسوا بإحساس العرب ، لأكثر من سبب ، وفى مقدمة هذه الأسباب : الجهل !..أما اليهود ، فلهم نفوذهم فى صفوف الصحفيين والكتاب وملوك السينما وممثليها ، وبين الرسامين والموسيقيين ، وهم يتضامنون فيما بينهم على الدعاية لسلالتهم ، وإبقاء العرب وراء الستار !

« وانها لظاهرة عجيبة أن يسود الجهل بالعرب على هذه الصورة وإلى هذا المدى المذهل ، فى الوقت الذى صغرت فيه رقعة العالم ، وصارت القاهرة وبيروت ودمشق على قيد ساعات قليلة من الطيران التجارى من لندن .. وفى الوقت الذى ربطت فيه الإذاعات والصحف أرجاء المسكونة .

« قريبا يا وليد سأكون معك ، فسيسمحون لى بقضاء عيد الميلاد القادم فى (رام الله) ، وسأذهب إلى (بيت لحم) لزيارة أمين ، فان كنت فى رام الله عند حضورى ذهبنا إلى بيت لحم معا . وأنا فى الحق عاجز عن التعبير لك عن مدى تلهفى على العودة إلى فلسطين .. » .

* * *

وبسرعة جاءه رد وليد على هذه الرسالة ، وبشىء من التطويل ليس معهودا فى وليد : « سرتنى أنباء عودتك المرتقبة فى شهر ديسمبر ، وأرجو أن تخطرنى بموعد وصول طائرتك ، وسأحاول أن أدبر وصولى إلى هناك فى يوم ٢٢ ديسمبر أو بعده بقليل ، لأننى منذ ٨ أكتوبر ــ وهو بداية الفصل الدراسى ــ وأنا أدرس فى جامعة بيروت الأمريكية ، وعطلة

عيد الميلاد عندهم تبدأ فى ٢٢ ديسمبر ، ومدتها أسبوع واحد .

« وسأقضى معظم العطلة فى (الخليل) من أقاربى ، ولعلنا نحظى بقضاء بضعة أيام معا هناك ، وإن كان من غير المنتظر أن نتمكن من مغادرة تلك المنطقة فى هذه المرة إلى حيث تعلم .

« أما سؤالك عن الفتيات ، فاعلم أنى لا أهتم بشأنهن إطلاقا ، فأنا شديد الانهماك فى دراساتى ، وفى ذهنى مسائل كثيرة جديدة فضلا عن هذا كله . وانى لآسف لأن بدايتك فى الحب كانت متعثرة على هذا النحو . وأتمنى لك حظا أسعد فى المرة التالية، وإن كنت أنصحك بتأجيل هذه « المرة التالية » إلى ما بعد عام التدريب ، حتى تتجنب التعقيدات التى تدخل الاضطراب على أى شىء يمكن أن نقرر المضى فيه .

لقد أطلقت شاربى منذ التحقت بجامعة بيروت الأمريكية ، وقد أرفقت بهذا الخطاب صورة حديثة لى ، حتى يتسنى لك التعرف على شخصى عندما ترانى فى المطار !.. مع السلامة» .

« وليد حسين »

— ١٢ —

قضى أنطون أسابيع كثيرة يتعلم على يدى جده روبرت طرق التدريس للعميان والتفاهم معهم ، وطرق التفاهم مع الصم والبكم عن طريق الإشارات واللمس باليد . واقترض من صديقه مستر جونز — وهو مدرسه الخاص السابق — عددا كبيرا من الكتب فى التربية وعلم النفس ، كان يطالعها بنهم ويردها ليقترض كتبا غيرها . وكان مستر جونز يوجهه أيضا إلى مطالعة كثير من الكتب التى ساعدت على تشكيل ذهنه وتوسيع آفاق تفكيره .

ولم يكن يزعجه عاطفيا فى تلك الفترة سوى والدته . وكم تمنى لو أنه استطاع أن يصنع شيئا لارضائها ، ولكن ارضاءها كان فادح الثمن جدا : لأنها لا ترضى بأقل من تخليه عن تصميمه على قضاء تلك السنة فى الأردن . وكانت هذه الفكرة قد ازدادت الحاحا على ذهنه ، منذ منى بتلك الصدمة العاطفية فى علاقته بروزا . وكانت أمه قد وافقت على خطته مرغمة أو شبه مرغمة ، إلا أنها قالت له — بصريح العبارة — إنها تتمنى لو غير رأيه قبل فوات الأوان . ولكنه رد عليها بأنه يعلم سلفا أن رأيه قاطع ونهائى ، ولن يطرأ عليه تعديل .

وسألها ذات يوم فى ضراعة : « لماذا تقفين هذا الموقف المناهض لسفرى إلى موطنى ؟ » .. ولم تستطع أن تقول له : « لأنك كل ما بقى لى من بطرس ، فإن عدت إلى الأردن فمكثت

هناك تلك السنة بطولها ، فمعنى ذلك أنك خرجت من حياتى عاما كاملا ، أو ربما إلى الأبد » ، ولكنها اكتفت بأن تقول له ببساطة : « لأننى سأشعر بالوحدة والوحشة بدونك » ، فقال لها بحرارة : « ولكنى سأكتب اليك باستمرار . وسيكون فى وسعك أن تأتى لتمضيه فترة من الوقت معى هناك ، عندما تظفرين بعطلة من عملك الصحفى المكتبى » .

وباصرار قالت له : « لن أستطيع العودة إلى الأردن . لن أستطيع » ، فأجابها فى ابتئاس : « لكم تشعرينني بالشقاء ، وتجعلين الذهاب عسيرا على جدا ، مع أنك تعلمين أنه لامناص لى من ذلك » .

ـ انى آسفة جدا لايلامك يا عزيزى . وأنت بطبيعة الحال صاحب الرأى الأخير فيما ينبغى أن تصنع ، وإن كان ذلك لا يروقنى ، ويجشمنى عناء نفسيا شديدا . فكن أمينا مع نفسك ، واصنع ما يوحيه اليك عقلك وضميرك . ولكنى فى الوقت نفسه لا يسعنى من جانبى إلا أن أكون أمينة مع نفسى . وبوحى من هذه الأمانة أصدقك القول أن رحيلك يسبب لى ألما شديدا .

***

وقبيل عيد ميلا « أنطون » الثامن عشر كانت أمه قد حدثته برغبتها ورغبة جديه فى إقامة حفل له ، لأنه سوف لا يكون حاضرا فى أعياد الميلاد ورأس السنة ، ولا فى عيد ميلاده التاسع عشر . وسيكون هذا الحفل آخر حفل يحضره قبل امتحان الفصل الدراسى الثانى والأخير فى مدرسته . وهو

الامتحان الذى يرجو أن يتفوق فيه كما تفوق فى امتحان الفصل الدراسى الأول . وقد شجعهم على ذلك أن يوم عيد ميلاده يوافق يوم السبت ، وهو يوم مناسب جدا لدى الإنجليز لإقامة الحفلات الخاصة ، وسيكون فى وسعه أن يدعو من يشاء من أصدقائه وزملائه الطلاب .

وضحك أنطون ليدارى عزوفه عن تلك الحفلة قائلا « الحقيقة اننى بغير أصدقاء بالمعنى الدقيق للكلمة ، ولست راغبا فى أن تقام لى حفلة فى هذه المناسبة ! » .. واشتد الجدل بينه وبين جدته وأمه .. إلى أن تدخل جده فى المناقشة، وأنقذ الموقف بقوله : « لماذا لا ندع الفتى يختار طريقة الاحتفال بعيد ميلاده على النحو الذى يهواه ؟ فهذا عيد ميلاده « هو » بعد كل شىء ! » .

وراحت ماريان تنظر إلى أبيها تارة وإلى ابنها تارة أخرى ، فى استياء واضح ، ولكنها غلبت على أمرها فسألت انطون :

ـ قل لنا ماذا تفضل أنت ؟

ـ أفضل أن نتناول العشاء معا فى البيت كالعادة ، نحن الأربعة فقط ، ونقتسم فيما بيننا زجاجة من النبيذ الفوار .

ولكن الجد قال بلهجة حاسمة : « ليكن ، ولكنى أصر على أن يكون شرابنا فى تلك الليلة الشمبانيا دون سواها » .

***

ويبدو أن ماريان كانت مصممة فيما بينها وبين نفسها على فرض شىء من الجو الاحتفالى الاجتماعى على تلك المناسبة ؛

فقامت ـ من غير أن تخبر أحدا بعزمها ـ بتوجيه الدعوة إلى زوجين من أصدقائها هما آل براون ، لقضاء السهرة فى البيت بعد العشاء فى ذلك اليوم . وكان « ديزموند براون » هو مدير الإعلانات فى دار صحافة الشرق الأوسط التى تعمل بها ماريان . وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، وسيم الشكل ، واسع الاطلاع فى شئون الشرق الأوسط ، وفى خلقه لطف وايناس ـ فى نظر ماريان على الأقل ـ أما زوجته «سوزى» فليست على مستوى عال من الثقافة ، ولكنها دمية جميلة جدا ، ومن ذلك النوع من النساء الذى يستخدم للزينة !

وكانت ماريان قد دعيت مرارا كثيرة فى بيت هذين الزوجين ، وهو بيت صغير أنيق ، وسبق لها أن دعتهما كثيرا فى بيت والديها . ولكن لم يسبق لأنطون أن التقى بهما لأن حضورهما إلى بيت آل ملبى كان فى المدة التى قضاها أنطون فى معسكرات التدريب . فخطر لها أن هذه هى المناسبة اللائقة لدعوتهما ، للاجتماع به والتعرف إليه ، وأن وجودهما سيزيد من بهجة السهرة ويخرجها عن المألوف .

ولم يرحب أنطون بالفكرة عندما علم بها فى يوم عيد ميلاده ترحيبا حارا ، ولكن جده سرى عنه قائلا : لا عليك يا بنى . فلن تجد نفسك مطالبا بالاجتهاد فى تخير الأحاديث مع مسز براون ، لأنها لا تفقه أى نوع من أنواع الحديث . أما زوجها فيجيد الكلام ولا يجيد الاصغاء . وستكون على خير حال وأنت ملتزم الصمت ، تصغى لما يقول الزوج وتملأ عينيك من الزوجة الحسناء ! » .

وقطبت الجدة حاجبيها وزجرت زوجها ، طالبة منه أن يستغفر ربه لما تفوه به من الاغتياب ، واتهمته بأن الشمبانيا صعدت إلى رأسه !.. فلم يسعه إلا أن يسكت ويطرق ، واتجه إلى المذياع فأدار مفاتيحه ، وإذا بالباب يطرق ويدخل الضيفان .

واستقبل أنطون الضيفين بتحفظ شديد ، ولفت نظره إسراف الزوجة الشابة فى استخدام الحلى الصناعية البراقة ، وإغراقها فى التضمخ بالعطور النفاذة ، وإسرافها فى اغداق ابتساماتها التى تكشف عن صفين من الأسنان الجميلة . أما « ديزموند » ـ الزوج ـ فلم يشعر نحوه أنطون بارتياح ، برغم أناقته الشديدة ، وابتسامته وتحذلقه فى تخير ربطة عنقه !

ونشطت الجدة لصنع القهوة ، ودعا الجد مسز براون لتناول شىء من الشمبانيا . فقالت بجذل كالأطفال : « شمبانيا ! انكم توسعون على أنفسكم كما أرى ! » .. فقال ملبى وهو يملأ لها كأسها : « إن الفتى يبلغ الثامنة عشرة مرة فى العمر !

وانتهزت ماريان هذه الفرصة فقالت تذكرها : « ولا تنسى أيضا أن « أنطون » سيرحل إلى الأردن بعد انتهاء الدراسة ليقضى هناك سنة كاملة » .

وكان تعليق سوزى عبارة عن ابتسامة أخرى مشرقة ـ وإن كانت خالية من المعنى ! ـ أما زوجها ففتح الله عليه بعبارة أراد أن يدل بها على سعة إطلاعه على مسائل الشرق

الأوسط ، فقال : « سمعت أنك عائد إلى أشـــد بقاع الأرض انخفاضا ؟ » .

فأجابه أنطون بفتور : « سأذهب إلى (أريحا) فيما أعتقد لمجرد الزيارة الخاطفة . ولكنى فى الغالب سأقيم مع عمى فى (رام الله) قبل ان أذهب لتولى مهام عملى فى (بيت لحم) » .

ـ ولـــماذا لا تطير مباشرة إلى بيروت ثم تســـتقل طائرة الصباح إلى القدس ؟ أليس هذا أبسط وأسهل ؟

ـ بل انى أفضل الطيران إلى عمان ، ثم أذهب إلى رام الله عن طريق أريحا بالسيارة . فالسفر إلى أريحا فى الصـــباح الباكر متعة نادرة . ثم انى متفق مع صديق لى على أن يلقانى فى المطار ثم نذهب معا لتناول « الفـــول » فى أحد مطاعمهـــا قبل استئناف السفر .

وهتف جده بحماسة : « الفول ! ما أحلى الفول بالأرغفة المستديرة العربية الرقيقة ، سواء أكلناه بالزيت والليمون ، أو بالزبد الطازج ! » .

وأقبلت الجـــدة فى هـــذه اللحظة إلى المطبخ حاملة أدوات القهوة وأخـــرج ملبى زجاجة من كونيـــاك « كورفوازييه » الفرنسى المعتق ، وتولى أنطون توزيع القهوة والكونياك ، فى حين راحت ماريان تشرح لضيفتها الحسناء « سوزى براون » صعوبة الحيـــاة فى أريحـــا ، وكيف كانت تستجلب السمك فى صناديق من الثلج من (العقبة) .. فصاحت سوزى :

ـ العقبة ؟ ما هذا الاسم ؟

فقال ملبى : « إنما ميناء على البحر الأحمر . فاليهـــود قد اغتصبوا ساحل البحر الأبيض لأنفسهم ، والأردن ليس بهـــا بحر سوى البحر الميت » .

ـ وماذا عن بحر الجليل ؟

فقال زوجهـــا بحذلقـــة : « بحر الجليـــل يوجـــد الآن فى إسرائيل » .

فقال أنطون بحزم وهو يقدم له آنية السكر :

ـ بل قل فلسطين المحتلة !

فقال ديزموند بمزيد من الحذلقة : « إسرائيـــل أمر واقع ، سواء احببنا هذا أو لم نحببه. والأولى أن نكون واقعيين ! » ..

وكان يتكلم وقد وضع ساقا على ساق ، وهو يهز قدمه أثناء الكلام ، وابتسامته المتكلفة متقنة جدا وأنيقة مثل رباط عنقـــه تماما . وشعر أنطون بازدياد بغضه له . وتساءل بينه وبين نفسه : ترى هـــل يكرهـــه جده كذاك ؟ ولكن الجـــد لم يكن يبغضه فى الواقع ، وإن كان يضيق به ضيقا شديدا ، ويراه ثقيل الظل ، ويشعر بالغيظ لإهدار الكونياك الجيد على مثل هذا الرجل السخيف !

ويبدو أن الشمبانيا التى شربها أنطون على العشاء بكثرة ، زادت من ثورة غضـــبه ، وجعلته أشـــد اندفاعا وجرأة .. فقال على سبيل التحدى : « بل أن الواقعيـــة تقتضى منا أن

نسمى الأشياء بأسمائهـا !! ووطنى الذى ولدت به اسـمه فلسطين . وبهذا الاسم عرف من آلاف السنين . ويوما ما ـ ليس ببعيد ـ سيعود هذا الاسم إلى الوجود من جديد ! » .

وغمغم ملبى بالعربية : « إن شاء الله . » .. فقال ديزموند بسخافة : « أشك كثيرا أنك سترى هذا اليوم ! » .

.. فطـار عقـل أنطون ، واندفـع يقـول : « أن جيل الفلسطينيين ممن فى سنى سيرون هـذا اليوم ، لأننا سنعمل على تحقيقه ! » .. ثم ارتفع صوته وهو يعلن بضراوة :

ـ ستتحرر فلسطين على يد الفلسطينيين !

فارتسمت على وجه ديزموند علائم التفكه الممزوج بالتهكم ، وقال له وهو يكسر جفن إحدى عينيه : « على يد جيش التحرير الفلسطينى ؟ » .

ـ أجل . وسيعمل هذا الجيش السرى فى داخل إسرائيل نفسها . سيكون لنا هناك طابور خامس !

ـ أهو التسلل الجماعى ؟

ـ ليس جماعيا . بل تدريجيا . وقد يستغرق ذلك منـا بضع سنين .

فالتفت ديزموند إلى كأس الكونياك وراح يديرها بين يديه ليدفئها ، ثم قال : « أخشى أن تستغرق فعلا هـذه العمـاية سنوات تتجاوز المدة المقدورة لحياتك ! » .

وتدخل ملبى فى الحـديث قائلا للضيف : « ينبغى أن تسمح

للشباب بأحلامه الخاصـة . ألم تكن لك أحـلامك وأنت فى الثامنة عشرة ؟ » .. فقال ديزموند بلهجة جافة : « عنـدما كنت فى الثامنة عشرة ـ سنة ١٩٣٩ ـ كانت الحـرب قـد اندلعت ، ولم يكن لدينا وقت للأحلام ! » .

وتكلف أنطون التثاؤب فجأة ، ثم ضـحك وقال : « آسف جدا . ولكن يبدو أن الشمبانيا هى التى أصابتنى بالتثاؤب . فاسمحوا لى بالانصراف . » .. ثم صافح الضيفين ، وأمسكت بسوزى يده بين كلتا يديها ، وقالت :

ـ ينبغى أن نلتقى مرارا كثيرة بعـد عودتك من الأراضى المقدسة . وأتمنى لك سفرا سعيدا .

وأسرع هو بالفرار من هذا الجو ..!



ــ ١٣ ــ

وما أن أوى أنطون إلى حجرته ، حتى أحس بازدياد وطأة النعاس عليه . فانتزع ثيابه انتزاعا واندس فى الفراش ــ من غير ان ينظف أسنانه كعادته قبل النوم ــ وكان يقول لنفسه : « كان خطأ منى أن أحتسى هذه الشمبانيا اللعينة ، فان الخمر تفك عقدة لسانك ، فتقول مالا تريد أن تبوح به لإنسان ! » .

.. واستيقظ فى اليوم التالى متأخرا ، وهبط إلى الطابق السفلى ليجد جدته قد غادرت البيت إلى الكنيسة ، أما جده فقد قالت له امه انه خرج ليتمشى قليلا ، ثم أردفت : « لقد أوشكت الساعة أن تدق الحادية عشرة » .

ــ آسف جدا ، فقد أصابنى صداع شديد ، من تأثير الشمبانيا فى الغالب .

ووجد إفطاره موضوعا على ركن من المائدة، وكانت ألوانه منتقاه من بين أطعمته الصباحية المفضلة : وهى اللبن الزبادى، والزيتون الأسود ، والجبن والتفاح ، فأكل بضع زيتونات ثم ذهب إلى المطبخ ليضع لنفسه قدحا من القهوة التركية ، ثم عاد ليشربها وهو يقضم تفاحة ، وعندئذ اقبلت امه فجلست قبالته ، وقالت : « أريد أن انتهز فرصة انفرادنا فى البيت لاتحدث إليك . » .. فنظر إليها نظرة ثابتة ، وقال : « بشأن ما قلته أنا بالأمس ؟ » .

ــ بشأن هذا الحديث عن التسلل إلى الأرض المحتلة . ألهذا تريد أن تعود إلى فلسطين ؟ أهى الأحلام الرومانسية اليافعة عن التحرير على يد طلاب المدارس ؟ أهذا ما تدبرانه ، انت وصاحبك وليد ؟

فحول أنطون عينيه عن عينيها ، وقال :

ــ أنت تعلمين لماذا أريد أن أعود . لقد أرهقنى الحنين إلى وطنى ، وليس لى ها هنا أصدقاء بمعنى الكلمة .

ــ لقد كنا متفقين فى البداية على أن تقضى هناك عطلة صيفية بعد انتهاء دراستك الثانوية ثم تعود لقضاء سنة العمل التدريبى هنا ، فلماذا غيرت رأيك وأصررت على قضاء تلك السنة هناك ؟ مع ما فى ذلك من انفصال عن أسرتك ؟

ــ عمى فريد وزوج عمتى خليل وأبناؤهما هم أسرتى كذلك .

ــ ولكنهم ليسوا لصقاء بك كوالدتك وجديك .

واحتسى بقية القهوة التى كان يستطيبها غاية الاستطابة حين شرع فى تناولها بعد أن صنعها بعناية ، لكنها صارت الآن ولا طعم لها ، بعد أن بردت، كما تغير طعم فمه ــ بما طرأ عليه من مرارة ــ واستطردت أمه : « لم يواتنى النوم طول الليلة الماضية من شدة قلقى عليك ، بعد أن أطلقت الخمر لسانك بما يدور فى ذهنك . ولم يكن عهدى بك أن تتكلم على هذه الوتيرة . وهالنى ما سمعته منك عن التسلل ، وتكوين طابور



فجعل يحدق فى صفحته ، وهو يعبث بسبابته بنوى الزيتون الأسود الذى أكله من قبل ..

عربى خامس داخل الأراضى المحتلة ، بين سمع اليهود وبصرهم! انطون ! الست ترى هذا كله خيالا ؟ » .

فجعل يحدق فى صفحته ، وهو يعبث بسبابته بنوى الزيتون الأسود الذى أكله من قبل ، وهو يعاهد نفسه على ألا يترب الخمر بعد ذلك ، سواء كانت شمبانيا أو غير شمبانيا . وأدرك صواب التعاليم الإسلامية التى تحرم الخمر على المؤمنين بالإسلام ، وهو لا يعرف مسلما متدينا فى فلسطين يقربها ، ولا يحسب وليدا يمكن أن يمسها بيده فى يوم من الأيام !

وثاب من شروده ليسمع والدته تسأله بحدة : « هل سمعت ما قلته لك ؟ انى أريد منك أن تقسم لى على انك لن تتورط فى مثل هذه المخاطر إن أنا سمحت لك بقضاء تلك السنة فى الأردن ! » .

فغمغم قائلا : « انى لم أعد طفلا » .

ــ بل إنك من بعض الوجوه لم تزل طفلا . وما كنت تقوله بالأمس لا يعدو أن يكون تخليط أطفال . لقد أخجلتنى بما تشدقت به أمام الضيفين . ومن حسن الحظ أن الجميع قدروا أن ذلك ليس تفكيرك السوى ، وأن الخمر هى التى عبثت بعقلك ما قلت .

ــ وهو ظن صائب .

ــ إذن أنت لم تكن جادا فيما قلته عن الطابور العربى الخامس ؟

ـ بل إنى اراها فكرة طيبة للغاية ، وهى ليست من اختراعى .

ـ قد تكون طيبة حقا لو أنه أمكن تحقيقها ، ولكن ذلك غير مستطاع . ولو كان أبوك حيا لقال لك هذا .

ـ لست أذكر بالضبط كل ما قلت .

ـ لابد لك من ان تعدنى بألا تقدم على حماقة من هذا القبيل إن أنت ذهبت إلى الأردن !

ـ ماذا تعنين بالحماقة ؟

ـ اى عمل تدرك أننى لن أقرك عليه . اقسم لى على هذا !

ـ فنظر إليها وقد بدأ غضبه يتحفز فى داخله ، وقال

ـ ولماذا القسم ؟ ألا تثقين بى ؟

ـ أما بعد الذى كان الليلة الماضية فلا !

ـ هذا إرغام وإرهاب لا حق لك فيه !

ـ بل لى كل الحق ، لأنى أمك . ولأنك ابنى الوحيد ، والبقية الباقية لى فى هذه الدنيا . انك تسمى ذلك إرغاما وإرهابا . أما أنا فأسميه باسم آخر : أنا أسميه طلبا مشروعا أوجهه إليك بأن تلتزم جادة اللياقة والاتزان فى تصرفك . فأما أن تقسم لى على هذا ، أو لا سفر !

ثم نهضت وغادرته يعبث بنوى الزيتون فى شرود ، إلى أن دخل عليه جده بعد بضع دقائق فقال له بمرح : « ما رأيك

فى قدح من القهوة يا أنطون ؟ » ، فنهض أنطون واتجه إلى الموقد ليصنع القهوة ، ولاحقه جده وهو يحشو غليونه بالتبغ ، ثم قال له : « لقد حدثتنى أمك بما دار بينكما من نقاش منذ برهة . وهى شديدة الانزعاج بشأنك ، فهلا أرحت بالها ؟ » .

ـ ليس أحب إلى من هذا ، ولكنها ترغم أنفى بذلك القسم الذى تطلبه منى إرغاما .

ـ إنما تطلبه منك لتطمئن عليك . بل إنى أنا أيضا مثلها ، أريد أن تؤكد لى انك لن تقدم على أى عمل طائش .

فقال أنطون فى نفسه وهو يتنسم عبير القهوة المزوجة بالحبهان : « حتى أنت ؟ » ، ولكنه كتم ما بنفسه وهم بأن يناقش جده ، قائلا : « وما العمل الطائش ؟ من الذى يقرر هذه الصفة ؟ » .. لكنه اكتفى بقوله له وهو يضع القهوة أمامه :

ـ أقدم لك التأكيد الكامل لهذا الشرط .

ـ شكرا لك . يجب أن تقدم مثله لوالدتك أيضا .

ـ سأحاول .

ـ تحاول ؟

ـ لأنه يستحيل على ذلك تحت التهديد . ثم أن بى صداعا من اثر الليلة الماضية ، وأريد أن أخرج للسير ساعة ، إن لم تكونوا بحاجة إلى هنا .

— قد تكون أمك بحاجة إلى مساعدتك لها فى إعداد الغداء .

— سأسألها .

واتجه إلى حجرة الجلوس فألفى أمه جالسة عند النافذة تقرأ ، فقال لها : « أتريدين منى أن أساعدك فى تقشير البطاطس أو ما إلى ذلك ؟ » .. فأجابته ببرود ، من غير أن ترفع بصرها عما تقرأ : « لا . وشكرا لك » .

— فى هذه الحالة أود أن أخرج للنزهة لمدة ساعة ، لأن بى صداعا .

فأجابته وهى تقلب الصفحة من غير أن تنظر إليه :

— عد فى الساعة الواحدة .

— أوه . أرجوك ألا تسخطى على .

فلم تنظر إليه ، ولم تجب .

* * *

ولم يعودا إلى هذا الحديث إلا فى المطار قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام ، وكان الوقت مساء ، فتوسلت ماريان إلى ابنها للمرة الأخيرة .

— عدنى أنك لن تتقدم مع وليد على حماقة طائشة ! عدنى يا حبيبى ، أرجوك !

فتناول اليد التى وضعتها فى ضراعة على ساعده ، ورفعها إلى فمه ، وقال : « كم أتمنى ألا تقلقى بسببى أو تنزعجى لمجرد

أننى سكرت قليلا فى ليلة عيد ميلادى الثامن عشر ، وتفوهت بكلام فارغ ! » .

— هذا إذا ظل ذلك الكلام فارغا ، لا نية وراءه للعمل به !

— ماذا تخالين ؟ ماذا يسعنى أنا ووليد أن نفعل لتحرير فلسطين المحتلة ؟

وفى هذه اللحظة عاد جده من كشك الكتب والصحف فى المطار وقد اشترى صحف المساء وطائفة من المجلات ، فسأله أنطون : « ألم تساورك الرغبة فى القدوم لزيارتى هناك ؟ » .

— لست أحب أن أعود إلى فلسطين وهى محتلة مغتصبة ! .. ولكن أقرىء عنى السلام تلك الشجرة العجوز عند الكنيسة فى بيت لحم . وأبلغ القدس عنى تحية حب .

ولم تكن جدته معهم فى ذلك المساء ، لارتباطها بجلسة فى إحدى اللجان كالعادة ، ولأنها خشيت أن تخونها أعصابها فى المطار .. وقد ودعته فى البيت بالعناق والبكاء وتوسلت إليه أن يكتب إليها كثيرا . أما فى مطار لندن فلم يبك أحد . لا هو ولا أمه ولا جده ، بل قبلته أمه وضمته إليها لحظة ثم أطلقته ، قائلة : « انتبه لنفسك يا حبيبى ! » .

أما جده فصافحه ، قائلا : « على بركة الله وفى أمان الله ! وعد إلينا سالما » .

— إن شاء الله !

وعندما حلقت الطائرة به ، قالت ماريان لأبيها :

— أليس عجيبا أن يعود إلى بيت لحم بالذات !.. لكأنى به عاد إلى بطرس ...

العـــــودة

ــ ١ ــ

أحس أنطون بفرحة طاغية لم يشعر بها من قبل والطائرة تدخل به سماء (عمان) من فوق التلال الصحراوية الجرداء ، حتى لقد نازعته نفسه لأول مرة فى حياته إلى الغناء والصياح ، لينفس عمـا فى أعماقه من الجيشان .. فان هى إلا لحظات قلائل حتى يرى وليدا ويعانقه ويتحدث إليه بعـد كل هـذه الفترة الطويلة التى امتدت أربع سنين . لقد افترقا تلميذين ، وهاهما الآن يلتقيان وقد غدا وليـد شابا ذا شـارب كث . وعجز أنطون عن تصور شكله ، فاستخرج من حافظة نقوده صورة وليد الشمسية التى كان قد بعث بها إليه ، وجعـل يتطلع متأملا تفاصيلها ..

وخيل إليه أن دهرا طويلا قد انقضى قبل أن يفتـح باب الطائرة وقد هبطت على الأرض وجرت فوقها مسافة طويلة ، ثم بدأ الركاب فى النزول ، فصافحت وجوههم أنسام الفجـر الرطبة قبيل شروق الشمس . ولم يستطع أنطون أن يتبين وجه صديقه بين زحام المنتظرين ، ولكنه راح يلوح بيـده ، موقنا من أن وليدا سيتبينه !

وعبر أنطون المسافة بين الطائرة ومبنى المطـار ، وأقبـل المظفون على فحص جوازات السفر ، وصافحت أذنيه من كل

صوب تلك الألفاظ العربية ، فراح يتلقفها فى سرور واشتياق بعد طول انقطاع عنها .

ودخل مع الداخلين ، وانتظر مع المنتظرين أمام الحاجز إلى أن يتم فحص الأوراق . وإذا به يفاجأ بزوج عمته خليل داود مقبلا من باب جانبى وراء حاجز الحقائب ، ومن ورائه شـاب وسيم ذو شارب أسود كث ، وفتاة فاحمة الشعر فى ثـوب صيفى أنيق .. وانقض خليل داود عليه وضـمه إلى صدره وقبله على خديه ، وهو يهتف بعبـارات الترحيب والتهنئـة بالعودة إلى الوطن ، وألفى الشاب نفسه يحتضن زوج عمتـه ويصيح مثل صياحه بلغة عربية طلقة ، وقد انجابت عنه كل صلة له بانجلترا ولغتها وعادات أهلها وتفكيرهم ، ولم يقاوم دموعه التى انبجست من عينيه .

.. ولم يدر هل كان فى وسعه أن يعرف وليدا من تلقـاء نفسه أم لا ، لأن الشارب الأسود غير شكله كثيرا جدا ، ولكنه أحس بأن هذا هو وليد حقـا حين عانقه وهتف بعبـارات الترحيب ، وضحك تلك الضحكة التى يعرفهـا عنه جيدا .. وبعد أن خفت حدة هـذا الاضطراب الذى غمره لأول وهلة ، فطن إلى وجود الفتـاة ، فتقدمت صـوبه على استحياء ، وسألته :

ــ الا تذكرنى ؟

وتردد أنطون قليلا ، فصاح وليد :

ــ أنت ولا شك تذكر « ثريا » !



وضحكت الفتاة عندئذ ، ففطن إلى أسنانها غير المنتظمة . ولكن عدم انتظامها لم يعد الآن ذا بال ، لأنها فى هذه السنوات الأربع قد تغيرت على نحو ما ، فأصبحت ذات جمال ووسامة .. وابتسم أنطون ، وقال لها :

ــ لقد رأيتك فى الحفلة التى أقيمت احتفالا بعودة نصرى زوج بنت عمى من الأسر . وأذكر أنك تتأهبين لدراسة الطب .

ــ وأنا الآن بالفعل فى كلية الطب بجامعة بيروت الأمريكية .

وفى هذه الأثناء كان فحص الحقائب قد تم . وانطلق الجميع فى سيارة خليل لتناول الفول فى مطعم صغير لطيف بعمان . وكل شىء يبدو فى نظر أنطون وكأنه قطعة من الجنة . وبعد الإفطار صاح أنطون : « لكأنى أحلم حلما لا أريد أن أفيق منه ! » .. فقال زوج عمته : « إننا جميعا فى دار السلام بأريحا لقضاء عيد الميلاد . فأرجو الا يحزنك الذهاب إلى هناك » .

ــ إطلاقا ! لكم تشوقت إلى أريحا وإلى دار السلام !

وتولى خليل قيادة السيارة صوب أريحا عن طريق وادى الأردن ، وما يحف به من تلال عظيمة ، وبطاح مترامية ، كان قلب أنطون يخفق لكل لمحة من لمحاتها . وخيل إليه أنه وإن لم يكف فى هذه السنوات الأربع عن التفكير فى هذه البقاع ، إلا أن مدى سحرها قد غاب عن ذاكرته . وعندما أخذت السيارة فى الانحدار عند جسر « النبى » اشتد الضغط على

اذنيه فاصيب بصمم وقتى من فرط الانخفاض عن مستوى سطح البحر . ولاحظ أن ثريا أيضا أخذت تسد أذنيها بأصابعها ، فنظر إليها وتبادلا الابتسام ، ثم قال : « لابد من هذا الإحساس فى الأذنين والمرء فى طريق أريحا ، ولكن هذا كله ينسى متى وصل الإنسان إلى ذلك البلد الجميل » .

وسره أن تومىء برأسها إيجابا ، لأنه ود من قرارة نفسه أن تحب ثريا أريحا ، وأن تتفق معه فى المزاج ، سيما وهو يحس دفء ابتسامتها الودية ..

وسمع زوج عمته يقول : « سنبعث من أريحا إلى والدتك ببرقية نخبرها بوصولك . أن الساعة الآن منتصف التاسعة ، ولكنها لا تتجاوز فى لندن منتصف السابعة . ولابد أن والدتك مستغرقة الآن فى النوم ، هى وجداك ! أما بعد الظهر فيجب ان تذهب لزيارة مستر شابلى عميد معهد العميان . وإن كان المفروض الا تبدأ العمل هناك إلا بعد عطلة عيد الميلاد . وستحب هذا الرجل كثيرا ، لأنه كان من أصدقاء جدك فى صدر شبابه ، ومن معارف أبيك عندما كنتم مقيمين فى يافا . أما صديقك « أمين » الأعمى فهو يقوم بالتدريس هناك الآن . وقد فهمت من مستر شابلى انك ستقيم معه فى مسكن واحد من مساكن المعلمين » .

وعندئذ سأل وليد : « أهى مدرسة المكفوفين القائمة على سفح التل المشرف على طريق الخليل عند مشارف بيت لحم ؟ » .

ــ أجل . وهى أكثر من مدرسة وأكثر من معهد ، لأنها تعلم الفتيان المكفوفين الصنائع المختلفة ، وتدربهم على التكيف بالحياة الاجتماعية الإيجابية . وأعتقد أن أنطون سيجد فى ذلك خبرة نافعة طريفة .

ــ والموقع مناسب أيضا كى يقوم بزيارة الخليل كلما شاء .

فقال خليل داود : « إن من يقومون بمثل هذا العمل لا يجدون وقت فراغ » .

ــ سنقتنع بما هو ممكن .

قال وليد ذلك وهو ينظر إلى أنطون نظرة جانبية ذات معنى ، ولكن أنطونا كان فى شغل عنه بالنظر إلى ثريا وهو فى حالة انتشاء . ولما فطن وليد إلى ذلك ، ثبت نظرة إلى الأمام فى الطريق التى تتلوى هابطة صوب أريحا ، وقد علا وجهه القطوب ، ولم يفتح فمه بكلمة إلى أن اقتربت السيارة بهم من غاية الرحلة .

وما أن وقع نظر أنطون على جبل التجربة حتى هتف : « هذا هو ! كما تصورته تماما طيلة هذه المدة ! » .. ثم التفت إلى وليد وقال فى لهفة : « هيا بنا نرتقيه بعد الظهر على سبيل الذكرى » .

فذكره زوج عمته : «إنك ستزور بعد الظهر مستر شابلى» .

ــ نرتقيه غدا إذن ! يجب أن يقضى وليد الليلة معنا ثم نصعد الجبل غدا صباحا فى ساعة مبكرة ، قبل الشروق .

وفى وسعنا أن نأخذ معنا طعاما فنفطر ونتغذى هناك فوق القمة . ما رأيك فى هذه الفكرة ؟

ــ فكرة عظيمة ! وأنا سأقضى الليلة فى بيت زوج عمتك بالفعل ، لأنه تفضل فدعا ثريا ودعانى للمبيت ، كى نحضر الحفلة التى سيقيمها الليلة احتفالا بعودتك .

وانتهز وليد فرصة التفات خليل إلى ثريا ليقول لها شيئا ، فهمس فى أذن صديقه : « وسيكون الغد فرصة طيبة للحديث ! » .

ووصلت السيارة إلى بوابة (دار السلام) . وكان الخادم الذى فتح البوابة لهم هو بعينه الذى عرفه أنطون فى صباه ، وقد رحب بأنطون أجمل ترحيب بعباراته الساذجة . ولما اقتربت السيارة من شرفة البيت ، رأى أنطون الأسرة بأكملها مجتمعة هناك ، فيما عدا نصرى .. وكان عمه فريد أول المبادرين إلى الترحيب به . وبوغت أنطون بازدياد الشبه بين عمه وأبيه !.. فهو قد اكتسب شيئا من البدانة ، واندلع الشيب فى شعره ، فغدا أشبه ما يكون من الناحية البدنية ببطرس . أما زوجة عمه « ماجدة » التى كانت مائلة إلى البدانة طول عمرها ، فقد أصبحت الآن بدينة جدا حقا ، بيد أن ابتسامتها ظلت دافئة ، ومودتها دافقة .

وعمته « منى » ازداد وزنها أيضا ، ولكن فى الحدود التى زادتها وقارا ، ولم تقلل من وسامتها الشديدة ، وقد ذكرت أنطونا أيضا بأبيه .

ونادية !.. ابنة عمه .. كان السنوات الأربع لم تكن بالنسبة لها أكثر من أربعة أيام ، فجمالها كما هو . ولم يظهر عليها أى أثر للسن ، وأطفالها الثلاثة يحفون بها ، ومن الواضح أن رابعهم سيبرز إلى الوجود بعد وقت قصير !

وبنات العمة ازداد طولهن ، ولكنهن لم يزلن على حيائهن ، وإن كانت كبراهن شديدة الاحتفال بالأناقة . وكففن عن عادتهن فى الضحك العصبى بسبب ولغير سبب !

وقبل انطون يد عمته وزوجة عمه ، ونادية ، ثم اقبل الطاهى يوسف ومن ورائه زوجته لتقديم مراسم الترحيب بابن السيد القديم ، والدموع تترقرق فى عيونهما . وبعد ذلك قام يوسف بمعاونة خادم آخر بتقديم الأشربة الباردة ، فى حين كانت المروحة الكهربائية الكبيرة تحرك الهواء الساخن ، وقد استقر الجميع فى كراسى الخيزران الضخمة ، ورائحة أشجار الياسمين ، التى تحف بالشرفة ، تملأ الجو بعبير مترف .

ولما رأى انطون ثريا ونادية جالستين معا ، نهض ووقف بجوارهما ، وقالت ثريا وهى تقلب عينيها فى الحديقة الجميلة المنسقة . بما فيها من أشجار النخيل العالية ، ونبات « الجهنمية » وخمائل البرتقال : « ما أجمل كل شىء هنا ! اتد حضرت إلى (أريحا) كثيرا ولكن لم يخطر ببالى أن مكانا جميلا كهذا يكمن متواريا عن الأنظار بعيدا عن الطريق . إن هذه الدار تستحق اسم دار السلام حقا ! » .

وابتسم انطون مسرورا ، وقال : « كان أبى يحب هذه الدار كثيرا ، ويهفو إليها دائما كلما ابتعد عنها ، فهى واحته التى ينشد فيها الطمأنينة والسلام . وكان يروى لأصدقائه

دائما ، كيف شعر لأول مرة بالحب لامى فى هذا الموضع . وفى هذه الدار أيضا قضى آخر أيامه ، ولفظ آخر أنفاسه » .

فقالت الفتاة ، متلطفة : « كنت أعرف هذا ، ولكنى لم أكن أعرف ذلك الجانب الرومانسى من قصة حب أبيك وأمك . ولا شك أن هذا يزيد من سحر المكان وجماله ! » .

ونظرت بنت عمه نادية إليه نظرة ذات معنى ، وقالت : «لماذا لا تطوف مع ثريا لتريها أرجاء البيت ؟ » .

ـ بكل سرور ، إن هى شاءت !

وعلى الفور نهضت الفتاة وسارت معه . وما أن دخلا من باب الشرفة وصارا وحدهما ، حتى نازعت انطونا نفسه إلى أن يتناول يدها فى يده ، ثم تذكر انها عربية ، وأنهما فى فلسطين وليسا فى إنجلترا ! وأن حسبهما من اجتراء على العرف السائد أن يطوفا بالحجرات معا ، وليس معهما ثالث ..

والفى البيت على حاله على حد ما يذكر . فالأبسطة العجمية الجميلة الفاخرة التى يعرفها جيدا ، لم تزل مفروشة فوق الأرض المبلطة بالرخام ، فى الحجرات الواسعة . وهذه حجرة المكتب الكبيرة الخاصة بالكتب ، وهذه هى كتل الأخشاب تملأ المدافىء لاستخدامها فى الليالى الباردة ، على نحو ما كانت تصنع أمه من قبل . وها هى زهرية تتوسط مكتب أبيه الصغير فى حجرة النوم التى مات فيها . وعلى رأس السلم طالعته الصورة النصفية التى أوصى أبوه فنانا من القدس أن يصنعها لأمه فى باكورة زواجهما . ولم تكن أمه راضية عن هذه الصورة

فتركتها لخليل . وأسعده أن يجد زوج عمته قد احتفظ بهـا فى مكان الشرف المعهود عند رأس السلم . وقال لثريا :

— هـذه أمى فى شـبابها . وكنت فى الثالثة من عمـرى عندئذ — فلست أذكر شكلها فى تلك الأيام ، وما كنت لأعـرف انها لأمى — ولكن أبى كان يحب هذه الصورة . وزوج عمتى خليل يحبها أيضا .

وعلى هذا النحو مضيا يتجاذبان أطراف الحديث والتعليقات فى سهولة ويسر ، وهما يتنقلان بين الحجرات ، حتى وصلا إلى حجرته السابقة ، ونفذ ، منها إلى الشرفة الواسعة التى تطل على جبل التجربة . وعن كثب من سفحه كان يقـوم معسكر للاجئين ضربت فيه الخيام صفا وراء صف ، فى ألوف يخطئها الحصر !

ووقفا كلاهما فى الطرف الأقصى للشرفة ينظران إلى خمائل البرتقال ، وقد عبقت الجو أزهاره الفواحـة تحت الشمس الساطعة . وأخذت الفتاة تملأ صدرها من ذلك الهواء العطر ، منتشية بجمال المنظر ، وعندئذ قال لها أنطون : « ها هنـا وقف أبى إلى جوار أمى على انفراد لأول مرة ، حين صارحها بأنه يتمنى أن يتزوجها . ومن بعد ذلك اليوم صار هذا المكان أحب بقعة فى الدنيا إلى نفسه . وكانت هذه الشرفة مكانهما المفضل هو وأمى ، إلى أن أقعده داء القلب عن صعود السلم ، فصار ينام فى الطابق الأسفل ، ولا يبرحه . كم أتمنى لو أنه عرف أننى عدت إلى هنا ! » .

— بل لعله يعرف !

— لعله !

وبعد لحظة تردد ، قال لها : « هل فى وسـعنا أن نلتقى أحيانا ؟ فى (رام الله) مثلا ، فى بيت عمتى وعمى ؟ » .

— انى أتوقع فى مدة وجودى هنا — وكلما منحتنا الجامعة عطلة ، كعطلة الفصح مثلا — أن أزور بنات عمتك . ولكنك ستكون مشغولا بعملك فى بيت لحم .

— فى وسعى أن اتدبر وسـيلة الذهـاب إلى رام الله بين الحين والحين .

ولاحظ أنها مشيحة عنه بنظراتها فى ارتباك ، فقال : « لو كنا فى إنجلترا لكان من اليسير جدا أن نتفق على التلاقى لنقوم معا بنزهات على الأقدام فى المتنزهات والخلوات . أما هنـا فالوضع مختلف جدا » .

وعندئذ التفتت إليه وابتسمت ابتسامة عريضة ، وقالت : « نعم . جدا . ولكن بعض النـاس يستطيعون تدبير فرص اللقاء من غير أن يصطدموا بالعرف السائد . وأنا واثقة أننـا نستطيع تدبير ذلك لو اتفقت رغبتنا فيه » .

— ما أشد رغبتى فى ذلك . فهل أنت راغبة أيضـا فى أن نلتقى ؟

— أجل . أما الآن فيجب ألا ننسى العرف السائد ، وعلينـا أن نسرع بالعودة إلى حيث يجلس الباقون .

— أعتقد هذا ، وإن لم يكن فيه هواى !

وغادرا الشرفة عائدين إلى الدار . وفى هذه المرة صنعا كلاهما شيئا واحدا على غير اتفاق سابق : فحينما كانا يمران فى الحجرات بفراش ، كان كل منهما يغض بصره ويسرع الخطو متباعدا عن الآخر بعض الشىء ، وإن كان إحساس كل منهما بصاحبه قد ازداد شدة وعمقا !

— ٢ —

وفوق قمة جبل التجربة ، وبين أزاهير (الآذريون) البرية الصفراء العطرة ، استلقى وليد حسين على بطنه وراح يتحدث حديثا طويلا إلى أنطون الذى جلس مسندا ظهره إلى صخرة ، ومرسلا طرفه عبر الوادى العريض الذى ترتفع فى جوه أشجار النخيل الباسقة ، وأشجار الزيتون العريقة ، وتفترش أديمه — لاصقة بالأرض — بيوت أريحا البيضاء .

— لقد حدثت أمور كثيرة منذ غادرتنا ، ولكن الوضع فى جوهره لم يتغير . فالملك عبد الله قتل كما تعلم ، وابنه الملك طلال نزل عن العرش وتولاه الملك الشاب حسين . ولكن فلسطين المحتلة لم تزل على حالها مغصوبة محتلة . وفى كل عام تطفو القضية الفلسطينية على السطح فى جدول أعمال هيئة الأمم المتحدة بجمعيتها العامة ، وينتهى الأمر دائما بتأكيد حق اللاجئين فى التوطن ، ثم يقف الأمر عند هذا الحد . فلا اللاجئون يستردون وطنهم ، ولا يبدو أن هناك أملا فى أن ترد إليهم هذه المنظمة وطنهم . فلن يحدث شىء حاسم فى قضية فلسطين إلا إذا صنع الفلسطينيون أنفسهم هذا الشىء . هذه حقيقة نعرفها جميعا . ولكن المشكلة كلها تنحصر فى إيجاد الوسيلة المؤدية إلى ذلك . وما أكثر ما يقوله من يسمون أنفسهم بالعقلاء من أن العودة إلى الوطن حل غير عملى ، وإننا يجب أن نكون « واقعيين ، عمليين » فنقبل الوضع الراهن ، أى نقبل تحول ثلثى فلسطين العربية إلى دولة لقيطة اسمها

إسرائيل !.. فنوافق بذلك على ضياع شخصيتنا القومية ، ونتحول من أمة متميزة مستقلة ، إلى حشود من الأفراد مشتتين فى بلدان تستضيفنا . فالتنازل عن الوطن معناه ضياع القومية ولا مراء . فهل فى وسعنا أن ننسى إلى الأبد أننا فلسطينيون ، ونمضى فى الحياة المشردة بقلوب مطمئنة ، حتى ينسى الناس قضيتنا الوطنية بعد أن نسيناها نحن ، ونتحول من شعب مظلوم إلى شعب منسى ؟!

وكان صوته وهو يتكلم يقطر مرارة .. ثم اعتدل فى جلسته واكفهر وجهه من فرط الغضب وهو يستطرد ، قائلا :

ــ وهناك آخرون ينادون بأن دولة إسرائيل إنما هى مرحلة عابرة من مراحل التاريخ ، وأن هذا الاحتلال الغاصب سينجاب عن فلسطين بصورة طبيعية ، كما انجاب عنها سلطان الإمبراطورية البريطانية . وأصحاب هذا الرأى من المؤمنين بالنظرة التاريخية إلى الأمور . ويطيب لهم أن يقولوا لك ، كيف انتهت امبراطورية الفرس بعد ازدهار ، وكيف انتهت امبراطورية الرومان بعد رسوخ وانتشار ، وكيف انتهت وريثتها الإمبراطورية البريطانية وكانت الشمس لا تغرب عن أرجائها فى ليل أو نهار ، وكيف قام الرايخ الثالث وأوشك أن يسيطر هتلر على العالم أجمع ثم لم يلبث أن انهار .. فما علينا للتخلص من إسرائيل سوى طول الانتظار ! وهو كلام لا يقوله إلا من يملكون كل شىء ، فهم فى أوطانهم مستقرون ، وفى ديارهم آمنون موفورون ، وما عليهم بعد ذلك أن يطالبوا المشردين المحرومين المغصوبين بالصبر والأناة إلى أن تنقضى



استلقى « وليد حسين » على بطنه وراح يتحدث حديثا طويلا الى «انطون» الذى جلس مسندا ظهره الى صخرة ..

الحياة ، ولا خسارة على الناصحين ، ولا كسب للمنصوحين وإنما الكسب فى الحقيقة لأولئك الذين من مصحلتهم استقرار الأمور وعدم نشوب القلاقل ، ولو دفاعا عن حق ، أو دفعا لعدوان على الحياة . وأحسب أنك التقيت بالكثيرين من طراز أولئك الناس أثناء إقامتك الطويلة فى إنجلترا .

— نعم . وكثيرا ما ضاقت أنفاسى بهم !

— هذا حالك وأنت مقيم فى النعمة والعافية ، بين أهل أمك فى تلك البلاد البعيدة ، فما بالك بالذين يعيشون فى الخيام البالية ولا مورد لحياتهم إلا ما تجود به عليهم أكف المتصدقين تحت اسم « هيئة إغاثة اللاجئين » ، وإنه لفتات لا يسمن ولا يغنى من جوع !

وسكت وليد قليلا ، ثم أردف :

— إن لى صديقا يعمل فى معهد المكفوفين الذى ستعمل به أنت ، واسمه « طالب حمادى » . تعرفت به منذ سنتين ، وكان يومئذ يعيش فى معسكر اللاجئين الكبير بالقرب من (بيت لحم) . وكنت قد ذهبت لزيارة ذلك المعسكر فى صحبة عمى مدير البنك . وطفنا بأرجائه ومعنا المشرف ومندوب لجنة الإغاثة . وكان طالب حمادى أحد الذين تحدثنا إليهم لاستطلاع الأحوال . فألفاه عمى شخصا ذكيا متوقد الذهن ، ثابت الجنان ، طلق اللسان . فأعجب به ، وسأله ، أفلا يحب أن يلتحق بعمل خارج نطاق المعسكر فيتسنى له أن يعيش بعيدا عنه فى ظروف أفضل من هذه الظروف ؟ وكانت سن طالب وقتئذ ثمانى عشرة سنة ، فأجاه لأول وهلة بالرفض ،

لأن قبوله سيترتب عليه إنقاص مخصصات المعونة لأسرته ، بيد أن أباه انتهره وقال إن من الغباء إفلات مثل هذه الفرصة. وهكذا حصل عمى لطالب على ذلك العمل فى معهد مستر شابلى . وفى العام الماضى تزوج من إحدى فتيات المعسكر ، وهى لم تزل مقيمة به ، مع أنه يقيم مثل سائر مدرسى المعهد فى المستعمرة الملحقة بالمعهد نفسه ، لأنها فضلت البقاء مع أسرتها .

— وكيف يستقيم هذا الزواج ؟

— إنه ينتهز أى فترة فراغ مدتها ساعة أو ساعتان لينطلق إلى المعسكر على متن دراجته كى يرى زوجته ويجالسها قليلا. وقد صارحنى بأن المعيشة فى المعهد تتوفر لها وسائل الراحة إلى أقصى حد . وأن الغذاء فى نظره على الأقل ممتاز . وأن الجميع هناك يعاملونه أكرم معاملة . ومع هذا فهو لم يزل يشعر باستمرار أن بيته الحقيقى فى ذلك المعسكر بين أبناء عشيرته . وهذا هو ما يسمى الآن بعقدة الالتجاء . او العقلية الخاصة باللاجئين . وزوجته تنتمى إلى هذه العقلية ايضا . ولذا ترفض أن تستقل بمعيشتها مع زوجها فى مسكن خاص ببيت لحم . وكلنا هنا تقريبا ننتمى إلى هذه العقلية ، حتى من لا يعيشون منا فى المعسكرات ، مثلى انا الذى أعيش فى بيت عمى مدير البنك — حين أكون هنا — أو فى مساكن الجامعة ببيروت أثناء السنة الدراسية . وحتى أنت — وقد عشت عيشة مختلفة جدا عن معيشة المعسكرات فى انجلترا ، بين

والدتك وجديك — إلا أنك كنت تواقا طوال الوقت للعودة إلى هذا البلد ..

— إن هذه الفكرة لم تفارق ذهنى لحظة واحدة !

— وكذلك الحال بالنسبة لى وأنا فى بيروت ، مع أننى سعيد جدا بالفرصة التى أتيحت لى كى أتلقى العلم هناك . ولكن بيروت ليست وطنى ، ولا أشعر بقوميتى كما أشعر بها هنا ، فى الأرض التى كانت تسمى فلسطين ، ويجب أن تسمى بهذا الاسم على الدوام .

— ولكن ماذا عن صاحبك « طالب حمادى » ؟

— إنه يتمتع بميزية بارزة بالنسبة لمشروعنا ، فهو من بئر سبع ، وهو متلهف أشد اللهفة على العودة اليها ، لأن له أخا لم يزل مقيما هناك . وقد استطعت إقناعه بوجوب تكوين نواة للمقاومة الفعالة السرية هناك ، داخل الأرض المحتلة نفسها . وإلى أخيه هذا سنتجه عند تسللنا ، وسيكون « طالب » معنا .

وتسارعت دقات قلب أنطون . فطريق بئر سبع لم تكن قبل ذلك سوى حلم من الأحلام ، أقرب إلى الرمز منها إلى الواقع ، ولكن ها هو الحلم يتحقق فى صورة مادية ، على حين غرة !

ونظر أنطون من فوق قمة جبل التجربة ، كأنه يريد أن يرى تلك الطريق الملتوية التى تبدأ من الخليل وتتعرج فى

مسيرها عبر حدود التقسيم ، وإن هى إلا بضعة أميال حتى تكون قد أفضت إلى بئر سبع . انهما على هذه الطريق سيدرجان معا . هذا هو الواقع الذى بات ملموسا لأنطون ، كواقع وجوده الآن على قمة جبل التجربة مع وليد ، وكواقع هبوطهما عنه بعد قليل ليستردا دراجتيهما من الدير فى منتصف السفح .

وسأل أنطون وليدا وهو يجتهد أن يبدو غير مضطرب النفس بما جاش فى صدره من انفعالات عنيفة : « وهل يعرف طالب أرض تلك المنطقة جيدا ؟ » .

— خير معرفة . فقد كانت لأبيه أرض زراعية فى الوادى من وراء (الظهيرية) ، وله فى القرية أبناء عمومة ، مما سيساعده على الوصول إلى تلك المنطقة .

— وهل لم يزل الوصول إلى هناك محفوفا بالصعاب ؟

— الغرباء عن المنطقة لابد لهم من ترخيص بالمرور ، وسيكون فى وسعنا أن نحصل على الترخيص بسهولة عن طريق عمى . أما طالب فقد يجازف بركوب السيارة العامة إن حضر أحد أبناء عمومته يتسنى له إثبات شخصيته عند اللزوم لدى الشرطة ، ذلك أن رجال الشرطة يقومون أحيانا بالتفتيش على الركاب ومراجعة هوياتهم — (بطاقاتهم الشخصية) — ليتأكدوا من عدم وجود غرباء بينهم ، فإن وجدوا بينهم غريبا كان عليه أن يثبت قرابته لأحد من سكان (الظهيرية) ، ولذا يستحسن أن يكون معه أحد أقاربه بالفعل . وأنا شخصيا

كثيرا ما ذهبت مع عمى كلما حضر إلى خليل . وعلى كل حال لم يعد الأمر عسيرا كما كان فى سنة ١٩٤٩ ، ومع هذا ستكون أنت بحاجة إلى ترخيص .

ــ وما هى خطتك ؟

ــ خطتى أن أقضى العطلة كلها هناك فى فصل الصيف القادم ، كى اتعرف على أرض المنطقة تعرفا تاما . سأقضى النهار بطوله فى الحقول مع عمى ومع سعيد ومع الجد ، وفى كل يوم سأوغل إلى مسافة أبعد ، وأنا أعمل فى الزراعة ، من غير أن أتجاوز خط الهدنة . وسيقوم طالب برسم خريطة تفصيلية المنطقة .

ــ وكم من الوقت ستقضيه فى بئر سبع ؟

ــ ربما قضيت هناك بضعة أسابيع ، أما أنت وطالب فلن تقضيا هناك سوى بضعة أيام ، لأن العطلة الصيفية فى معهدكم شبه معدومة .

ــ سيكون عليك إذن أن تعود وحدك !

ــ لن يكون هذا عسيرا ، لأنى فى هذه الحالة لن أكون مشغول الذهن بمصير من معى . هل تشعر أنت بتوتر أعصابك فى مثل هذا الموقف يا أنطون ؟

ــ أجل . إن المسألة برمتها تبدو لى الآن هائلة ، وقد أوشكنا على تنفيذها . وليس معنى هذا طبعا انى لا أريد أن

أقوم بالمهمة ، فقد قضيت السنوات الأربع فى انجلترا وهى شغلى الشاغل !

ــ إن وصولنا إلى بئر سبع سيكون له أكبر الأثر فى الفلسطينيين هناك ، ولا سيما حين يرون شابا مثلك جاء إليهم خصيصا من وراء البحار . وثق أن من بين المسنين هناك من يذكرون أباك ومواقفه الوطنية .

ــ هل من المعروف عدد الفلسطينيين فى الأرض المحتلة ؟

ــ نحو خمسة وسبعين الف فلسطينى يعيشون تحت نير إسرائيل ، ويعاملونهم على أساس انهم « مواطنون من الدرجة الثانية » . وليست بئر سبع كما تعلم سوى البداية . مجرد نواة للمقاومة السرية التى يجب أن تنشأ فى كل قرية ومدينة فى الأراضى المحتلة لم يزل بها عرب . وقد آثرنا الابتداء ببئر سبع لأنها موطنى الأصلى وموطن طالب . ولابد لنا مستقبلا من وحدات من الفدائيين مدربين أحسن تدريب ، على طول الحدود . .

ــ الحكومات وحدها هى التى تستطيع هذا !

ــ واى حكومة هى التى أعدت جيش ايرلندا الوطنى السرى الذى كافح الإنجليز بعد تقسيم ايرلندا ؟ ومن الذى أعد جيش المقاومة الفرنسى عند تقسيم فرنسا إلى محتلة وغير محتلة بعد الغزو النازى ؟

ثم نظر وليد فى ساعته وقال : يحسن أن نعود الآن ، فقد وعدناهم فى الدير أن نعود فى الساعة الرابعة » .

— ٣ —

كتب أنطون عددا من الرسائل إلى أهله فى إنجلترا ، وإلى صديقه مستر جونز ، وأرسل بطاقات ملونة إلى لندلى . وكان معظم حديثه إلى والدته عن ثريا : « لقد أعجبت ثريا كثيرا بدار السلام ، وقد طفت بها أرجاءها وشرفاتها . ووقفنا وقفة طويلة فى الشرفة العلوية التى تطل عبر البستان على جبل التجربة . وأحسست وهى واقفة هناك معى أن التاريخ يعيد نفسه ، كما حدث فى أول مرة وقفت أنت فيها هناك مع أبى .. ولم تسنح لى الفرصة كى أراها بعد ذلك لأنها غادرت (أريحا) فى الصباح إلى (رام الله) لقضاء عيد الميلاد مع ذويها هناك ، وفى نهاية الشهر ستكون قد غادرت رام الله عائدة إلى بيروت لاستئناف دراستها . كم وددت لو أنها لم ترحل !

« .. وقد ذهبت لزيارة مستر شابلى فى يوم وصولى بعد الظهر ، فى صحبة زوج عمتى خليل الذى كان يقود السيارة ، وذهب معنا وليد ، وبذلك سنحت لى الفرصة كى أقدمه إلى أمين الذى يحتفظ الآن بشارب أسود كث مثل وليد ، ويعلم الأشغال اليدوية للمكفوفين فى المعهد . وقد طاف بى « أمين » أرجاء المعهد وملحقاته ، ومستعمرة المساكن التى يقيم بها المعلمون ، وأرانى الكوخ الذى سأشاركه فيه عندما أتسلم العمل . وكل شىء فى داخل هذا الكوخ الصغير أبيض ، أجرد ، والأرض الحجرية عارية والأثاث بسيط جدا وفى أضيق الحدود الممكنة . فكل شىء هنا هو الحد الأدنى للوازم

المعيشة الضرورية ، من غير نظر إلى وسائل الراحة أو الترف بطبيعة الحال !

« وليس بيت مستر شابلى أحسن حالا من بيوت المعلمين . وكل ما يتميز به هو تلك الكمية الضخمة من الكتب التى يملكها ، وهو رجل طويل القامة ، نحيلها ، أشيب الشعر ، رقيق الجانب غاية الرقة ، يفيض دماثة وعطفا وحنانا على تلاميذه ومرءوسيه . وأمين يقول إن الجميع هنا يحبونه لأنه فى الواقع إنسان منكر لذاته كل الإنكار . وهو شديد الإعجاب بالمهاتما غاندى . قال لى أمين ذات مرة إن هذا الهندوسى أشد مسيحية من الكثرة الغالبة ممن ينتسبون إلى المسيح بالاسم والعنوان . بل إنه يعتبر المهاتما غاندى أعظم ممثل للمسيحية فى العصور الحديثة .

« والمعهد فى الحقيقة أقرب إلى الجالية التى تعيش على أسلوب تعاونى مشترك منه إلى المدرسة . بل ما أشبهه بمستعمرة من حيث أنه يتألف من مجموعة من الأكواخ للاقامة ، ومزرعة صغيرة ، وحديقة لإنتاج الخضر التى تباع فى سوق البلدة ، وعدد من الورش ، ومصنع صغير للنسيج .

« ومستر شابلى لم يتزوج . ويزعم أمين أن ذلك أثر من آثار إعجابه بفلسفة غاندى . وفى المستعمرة أيضا سيدة إنجليزية هى الآنسة « ريس » ، وتقوم بمهمة مدبرة البيت والأم لجميع من فى المستعمرة ، وهى التى تعنى بثياب التلاميذ المكفوفين ، وتشرف على أعمال الغسيل التى تقوم بها فتيات من اللاجئات المقيمات فى المعسكر القريب .

والآنسة ريس فى نحو الستين من عمرها فيما أعتقد ، وقد حسبتها لأول وهلة حادة الطبع ، ولكن أمينا قال لى إنها طيبة القلب ، وأن ما حسبته حدة طبع إنما هو فى الواقع صراحة واستقامة فى التعبير ، وإنها ذات عقل عملى . وهذا الجانب من الخير ان يتوفر فيها ، لأن مستر شابلى رجل حالم ولا يصلح لمعالجة المسائل العملية . وقد أخبرتنى الآنسة ريس أنها كانت تعمل تحت إمرة جدى فى يافا ، وأنها ترسل إليه بتحياتها .

« والتلاميذ المكفوفون منهم من يقيمون فى المعهد بالقسم الداخلى ، ومنهم تلاميذ بالقسم الخارجى يحضرون يوميا عدا يوم الأحد ، وتتولى الآنسة ريس إحضارهم فى عربة المدرسة . ومستر شابلى هو الذى يلقى دروس اللغة الإنجليزية عليهم ، وسأتولى مساعدته فى هذه الدروس على أمل أن أتولاها نيابة عنه بصفة شاملة فيما بعد » .

* * *

والحقيقة أن ماريان لم تسترح لما ورد فى الخطاب بشأن الفتاة ، وإن كانت تعرف عائلة « سابا » معرفة يسيرة . وهى على يقين من أن ثريا فتاة مهذبة حسنة التربية ، يمكن أن تنجح فى « كشف الهيئة » أمام نظرات « الزبيث » الفاحصة ، وبمقاييسها الاجتماعية الصارمة . ولكنها كانت تريد لأنطون ألا ينشىء علاقة تربطه ببلاده العربية ، وتجعل إقامته هناك تمتد مستقبلا إلى أكثر من هذه السنة التدريبية .

ثم ماذا يكون الحال ومن المفروض فى ختام هذه السنة أن

يعود أنطون إلى لندن ليدرس فى مدرسة العلوم الاجتماعية والاقتصادية مدى سنتين على الأقل ، فى الوقت الذى لابد فيه للفتاة نفسها من قضاء مدة أطول من هذه فى اتمام دراستها الطبية بجامعة بيروت الأمريكية . فالصورة العامة لأطراف هذه العلاقة ، لا تبشر إلا بأنواع من الفرقة والقلق والحرمان ..

وناقشت ماريان الأمر مع أبيها ، ولكن الرجل العجوز المجرب رفض أن يجاريها فى هذا القلق ، وقال انها تزعج نفسها بأمور لم تزل فى طى الغيب : « دعى الفتى يستمتع بهذه العلاقة الحالمة خلال السنة التى يقضيها هناك ، ولا ننسى ان مثل هذه العلاقة ستشغل ذهنه عن كل هراء من تبدل التسلل وراء خطوط الهدنة مع صاحبه وليد . حتى إذا عاد إلى لندن ، استغرقته حياة جديدة فى الجامعة ، وتنتهى هذه العلاقة نهايتها الطبيعية . عن طريق الذبول والتلاشى . فأكبر الظن أن عودته إلى إنجلترا ستصل أسبابه بأسباب الحياة الإنجليزية ، فيتزوج فى النهاية فتاة إنجليزية . ومتى تم هذا فهو لن يفكر فى العودة إلى فلسطين » .

أخشى يا أبى أن تكون متفائلا أكثر مما ينبغى . فأنطون بن أبيه أكثر مما تتصور . وقد ظلت إنجلترا بالنسبة له « أرض المنفى » ، كما كانت حرية أن تكون بالنسبة لبطرس لو أنه كان هنا معنا تلك السنوات . فالعودة إلى فلسطين فى إحساس أنطون هى العودة إلى الوطن . وميله إلى هذه الفتاة ثريا راجع إلى حد كبير إلى أنها تمثل ببشرتها الحنطية طينة

بلاده وشمسها . فارتباطه بها هو ارتباط الجذر بالتربة التى ينمو فيها ويتأصل . ولذا أعتقد أنها ستجذبه إلى الشرق بحيث يعسر جدا انتزاعه من هناك ليعود إلى أحضاننا .

وهز روبرت ملبى كتفيه وقال بهدوء : « ليكن ما يكون . فالفتى ينبغى أن يحقق ذاته على الطريقة التى تستقر بها نفسه ويرتاح إليها تفكيره » .

ــ هذا شىء لا أمارى فيه . وإن كان يسبب لى ألما شديدا . ولكننا لا نصوغ أولادنا على ما نهوى . وسأكتب إليه اليوم وأبعث إليه ببركتى ..

ــ ولا تنسى بركتى أنا أيضا . « أعطنا اليوم . خبزنا كفافنا . » يوما بيوم . وغدا يوم جديد يفرض نفسه ، ولا حيلة لنا فى تحويله أو التنبؤ به . هذه فلسفة لم تزل صالحة لتسيير أمور البشر فى كل حين .

* * *

ولم يكتب أنطون إلى والدته شيئا عن تفاصيل حياته بعد ذلك ، وإن كان قد وصف لها احتفالات عيد الميلاد فى دار السلام ، وفى رام الله . ولم يذكر لها كيف حرص على لقاء ثريا قبل عودتها إلى بيروت ، وكيف كانت يداهما تتشابكان خلسة فى الحين بعد الحين ، كلما أمنتا أعين الرقباء ــ أو على الأصح الرقيبات من بنات عمته ــ وأن ثريا لم تكن تجذب يدها إلا بعد برهة طويلة وهى ترمقه بابتسامة وضيئة .

والحقيقة أن بذور القلق العاطفى أخذت تنمو فى نفسه بسرعة بعد أعياد الميلاد ورحيل ثريا . وكثيرا ما كان يختلط عليه الأمر وهو يحلم ، فيرى روزا بين ذراعيه فى قاعة السينما المظلمة . وقد التقمت شفتيه فى شفتيها كما كانت تفعل ، فيستيقظ من نومه مرتجفا وتفيض نفسه بالأسى والشجن ، ثم يتضح له بعد قليل أن ذلك الأسى ليس حنينا إلى روزا بالذات ، وأن صورتها فى الحلم لم تحدث له إلا اضطرابا جسديا عضويا ، أما حنينه العاطفى فالى الفتاة المقيمة فى بيروت !

وكان يؤلمه أن عطلة عيد الفصح لن تحل إلا بعد وقت طويل . ولا بد له من الصبر . ولكنه صبر يزيد عاطفته الوليدة اشتعالا ..



— ٤ —

شعر أنطون لأول وهلة أن « طالب حمادى » لا يمنحه ثقته ، برغم التزكية الحارة التى أضفاها عليه صديقه وليد ، فهو ينظر نظرة تشكك إلى الدماء السكسونية التى تسرى فى عروقه مختلطة بالدماء العربية . ولذا لم يكن راغبا فى اشراكه معهما فى عملية بئر سبع !.. يضاف إلى هذا أن طالبا من أسرة فقيرة أشد الفقر ، وكاهله مثقل أشد الاثقال بمسئولياته العائلية . وقد علمته مرارة التجربة فى معسكر اللاجئين الا يثق بالطبقة الغنية من الفلسطينيين ، لأن الظروف لم تقس عليهم إلى الحد الذى يتضورون فيه جوعا أو يعيشون على فتات الصدقة كما يعيش ذووه مع ألوف من نظرائهم فى تلك الخيام . وقد زادت هذه المرارة رسوبا فى نفسه بعد أن أودى سوء التغذية وبرد الشتاء وضآلة الكساء بحياة أبيه ـ على أثر التهاب رئوى فى ثانى شتاء قضته الأسرة فى ذلك المعسكر الرهيب ـ وهذه النار المتأججة فى نفسه هى التى جعلته شديد التحمس لفكرة التسلل إلى (بئر سبع) عندما فاتحه فيها وليد . فهذه الفكرة هى المتنفس الطبيعى الذى كانت تحتاج إليه نفسه الساخطة !

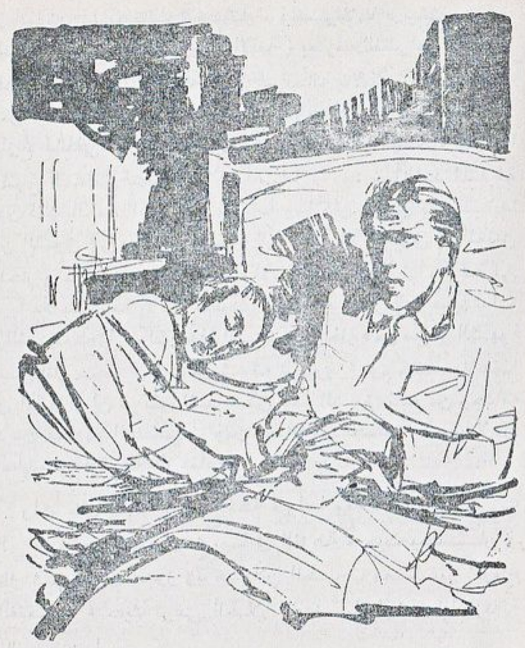
و « طالب حمادى » شاب طويل القامة ، عريض الكتفين ، وسيم المحيا ، لولا أنه دائم العبوس ، ضيق الصدر ، لا يميل المجاملة . وقلما رآه أحد باسم الثغر منبسط النفس كسائر الناس . ولبث متحفظا جدا فى علاقته بزميله الجديد أنطون .

وكان أول ما خطر لأنطون فى تعليل ذلك ، أنه يشعر بالغيرة منه لأنه اقتحم عليه استئثاره بصديقه وليد . ثم بدأت الحقيقة تتكشف له رويدا رويدا . فلم يحاول بعدها أن يكتسب صداقته ، واكتفى بصداقة صاحبه القديم أمين .

و (أمين) ـ على عكس «طالب» ـ دمث متواضع سهل القياد ، راض نفسه منذ زمن طويل على تقبل عاهته بغير تذمر ، وهو فياض النفس بالشكران والمودة على المعونة التى أسبغها عليه منذ صباه الباكر والد أنطون . أما أنطون نفسه فهو أحب إنسان فى الدنيا إليه ، وقد ظلت راسخة فى ذاكرته لمسة يد أنطون وهو قابض على يده طوال تلك المسيرة المشئومة من (اللد) إلى (رام الله) تحت شمس الصيف المحرقة فى التربة .

ولن ينسى (أمين) ـ ما عاش ـ اصرار أنطون على الاحتفاظ به إلى جواره فى سيارة الأسرة عندما أقبل عمه فريد لاصطحابه . ثم اصراره بعد ذلك على استبقائه معه فى بيت آل داود ، وقد جدد هذا الاحساس لديه أن أنطونا أصر عندما شاركه كوخه أن ينقل سريره إلى حجرة نوم أمين نفسها ليتسنى لهما السمر الطويل بعد ذلك الانقطاع !

ولكن أنطونا لم يخبر أمينا بما دبره مع وليد وطالب ، وإن كان قد سأله عرضا عن رأيه فى إنشاء طابور خامس داخل الأرض المحتلة ، تمهيدا لقيام حركة مقاومة مسلحة على نحو ما صنعه الفرنسيون أثناء الحرب العالمية الثانية بعد الغزو النازى . فاذا بأمين لا يدرى شيئا عن الطابور الخامس أو حركة المقاومة الفرنسية . وكان أنطون قد عرف ذلك كله



ومهما يكن من شيء فقد ظل انطون وقتا طويلا ساهر العين والذهن بعد أن استسلم أمين للنعاس ..



من مدرسه السابق مستر جونز ، فشرحه لأمين بحماسة أثارت اهتمام الشاب الأعمى ، بيد أنه لم يستطع أن يتصور نجاح المقاومة الفرنسية إلا على أساس أن الحلفاء كانوا يمدونهم بالمساعدات والسلاح بطريقة أو بأخرى . ولكن هل هذه هى الحال بالنسبة لحركة المقاومة العربية داخل إسرائيل ؟.. انه يفهم بسهولة أن يتسلل العرب الفلسطينيون وراء خطوط الهدنة لزيارة ذويهم وديارهم خلسة ثم يعودون بعد إطفاء غلة أشواقهم إلى مرابع طفولتهم ومراتع صباهم . فهذه فى تصوره عملية عاطفية عائلية ولا يمكن أن تكون حركة سياسية عسكرية .. وقد قال أمين رأيه هذا بصراحة . وهو رأى أملته عليه ظروف نشأته وعاهته التى جعلته « مستطيعا بغيره » ، ولا يتصور قيام الإنسان بأعمال خطيرة مستقلا بنفسه ، غير مستمد العون من أحد .

ومهما يكن من شيء فقد ظل أنطون وقتا طويلا ساهر العين والذهن بعد ان استسلم أمين للنعاس . وراح يقلب الفكرة كلها فى ذهنه . وخطر له أن وليدا وطالبا ربما كانا مدفوعين إلى هذه العملية بحافز انفعالى يريد أن يجد متنفسا عمليا للسخط والرغبة فى المقاومة ، من غير نظر إلى جدوى تلك المقاومة . فهى أشبه بالصرخة التى يطلقها المكروب ولو كان يعلم أنه ما من سميع ولا مجيب !

وفكر فى أمر نفسه شخصيا ، وفى الدافع الذى يحفزه على المضى فى إنفاذ تلك الخطة ، وتراءى له بعد امعان التفكير أنه إنما يستجيب فى ذلك لصداقته القديمة بوليد ، ورغبة منه

فى اثبات جدارته بتلك الصداقة . ولفرط ما « عايش » تلك
الفكرة ، استولت عليه بحكم الألفة ، بصرف النظر عن مبرراتها
الذهنية .. ولكن حاله اليوم غير حاله بالأمس . ولئن كانت
فكرة التسلل هى منزعه العاطفى الأوحد يوما ما ، فلديه اليوم
منزع عاطفى آخر يزداد يوما بعد يوم هيمنة عليه ، وهذا
المنزع العاطفى يتمثل فى « ثريا سابا » !.. وما أشد المفارقة
بين ذلك الحب الذى يكنه لثريا ، وما كان يكتوى به سابقا
من الشوق إلى روزا . فشوقه إلى روزا هو الشوق إلى العناق
الحار والمداعبات المثيرة ودفء الأنوثة الدافقة ، أما شوقه إلى
ثريا فلا يتمثل له إلا فى الجلوس إليها ، والنظر إلى عينيها ،
والتحدث معها . ولكن هذا الشوق على خلوه من سعير الشهوة
ليس أقل سيطرة عليه من شوقه إلى روزا يوم كانت علاقتهما
فى ابانها ، إن لم يكن أشد ، لأن هذا الشوق نابع من وجدانه
لا من غدده الصماء ، ومن عقله وشخصيته كلها لا من
احاسيس المراهقة الرعناء .

ولكم كان يحلم أحلام اليقظة فيراها وقد طارت من بيروت
إلى بيت لحم لتقضى معه يوما فى النزهة ، حيث يجلسان فى
ظل شجرة تين عجوز ويرسلان الطرف معا عبر المروج
الفيحاء ، حيث ترعى الحملان البيضاء أعشابا مزدانة
بالسوسن !

وسأله مستر شابلى ذات يوم عن حاله ، وهل يشعر فى
المعهد بالايناس والاستقرار النفسى ، والفى أنطون نفسه

يبتسم ويقول إنه على خير ما يرام هنا ، مثلما كان يبتسم وهو
فى المدرسة بلندن متظاهرا بالتأقلم والسعادة ، وقلبه فى واد
آخر !.. إن العميد على رقته البالغة لم يشعره بالألفة
العقلية ، ولكنه وجد تلك الألفة الصريحة مع الآنسة « ريس »
التى شعر بعد انقضاء أسبوعين على الأكثر أنها تميل إليه
وتألفه ، وكثيرا ما كانت تسرى عنه بعض وحشته بدعوته
للركوب معها إلى القدس ، كلما ذهبت إلى هناك لشراء
مستلزمات المستعمرة من الأطعمة وما إليها ، وكان هو خالى
البرنامج من الدروس التى يلقيها فى اللغة الإنجليزية والقراءة
بطريقة « برايل » .. فكان عندئذ يرحب دائما بتلك الرحلات
التى تدخل التغيير على نمط حياته الرتيب فى ذلك المكان ،
ويجد فيها فرصا طيبة للانصراف عن تفكيره المتصل فى ثريا
سابا .

وكثيرا ما نازعته نفسه أن يكتب إلى ثريا جانبا من الخواطر
التى تدور بذهنه فى شأنها ، ويبثها ، بعض أحلامه وأمانيه
وأشواقه ، ولكنه كان دائما يمزق ما يكتبه إليها ولا يجسر
على إيداعه صندوق البريد الجوى !

* * *

وأخذ موعد عطلة عيد الفصح يقترب رويدا رويدا ، ومعنى
ذلك عودة ثريا إلى رام الله . ومعناه فى الوقت نفسه عودة
وليد أيضا ! ووليد مصر على أن الوقت غير مناسب على
الاطلاق لإنشاء علاقة حب ، ووجود ثريا فى حد ذاته أمام
ناظرى أنطون برهان من أقوى ما يمكن على لزوم تلك العلاقة !

وشعر أنطون بحاجته القصوى للافضاء بحيرته إلى إنسان ما ، بيد انه ألفى من المستحيل عليه أن يناقش عاطفته نحو ثريا مع صديقه المكفوف أمين ، وليس له صديق سواه للأسف يسعه أن يفتح له قلبه فى هذه الفترة .. وفجاة ، ذات صباح مشرق من شهر أبريل ، رأى ثريا فى مدينة القدس ، تدس رأسها داخل نافذة السيارة التى جلس هو فيها ، فى المقعد المجاور للسائق ، ينتظر أوبة الآنسة ريس من مكتب البريد ، وعلى محياها ابتسامتها المشرقة !

ووثب أنطون من السيارة وراح يسألها بعد عبارات الترحيب الأولى عما اتى بها إلى القدس قبل بداية عطلة الفصح ، ومتى كان وصولها من بيروت . فأجابته أن عطلات كلية الطب تختلف من سنة إلى اخرى ، وانها حضرت من بيروت منذ ثلاثة أيام . فقال لها فى شىء من الاستياء :

ـ لك هنا ثلاثة أيام ولم نتقابل لولا هذه المصادفة التى جاءت على غير انتظار ؟

وكم كانت دهشته حين قالت له انها فكرت كثيرا فى الذهاب إلى بيت لحم لزيارته ، ولكنها لم تستطع تدبير ذلك بسهولة ، وانها ذهبت مرتين إلى بيت آل داود على أمل أن تراه هناك ، ولكنهم قالوا لها انه لم يعد يزورهم منذ التحق بالعمل . فقال انطون : « إن وقت فراغى قليل . وليس هناك ما يدعونى للتوجه إلى بيت فيه بنات عمتى الحمقاوات . ولكن ماذا سنصنع الآن وقد أوشكت عطلتك على الانتهاء ؟ » .

ـ أمامنا فى الصيف عطلة تمتد ثلاثة أشهر ، وسيكون من السهل علينا فى تلك الفترة أن نلتقى .

ـ لم تزل بيننا وبين الصيف فترة طويلة جدا .

ـ ليست طويلة إلى هذا الحد .

ـ فى نظرى أنا على الأقل !

ـ فى وسعنا أن نقصرها بتبادل الرسائل !

وعندئذ أقبلت الآنسة ريس من مكتب البريد ، فقام بتقديم ثريا إليها . وكانت الآنسة ريس تعرف والدها الدكتور سابا . ولم تلبث ثريا أن استأذنت فى الانصراف ، ثم حرصت على استبقاء يد أنطون فى يدها وهى تودعه ، وقالت له باسمة :

ـ هذا وعد إذن ؟ ستكتب إلى واكتب اليك !

ـ كم كنت متلهفا على هذا الوعد .

وتلاقت عيناهما فى نظرة طويلة ، ثم انصرفت . وفى الطريق إلى بيت لحم سألته الآنسة ريس : « أهى فتاتك ؟ » .

ـ أظن هذا . ولكن الفرصة لم تسنح لنا قط للالتقاء على انفراد . ولم أقابلها من قبل إلا فى حفلات عيد الميلاد بأريحا ، وكانت شرذمة كبيرة من أعضاء الأسرة تحيط بنا على الدوام ! ولست أدرى كيف يتسنى للشباب هنا أن يتعارفوا معرفة كافية لعقد الخطبة ، ودعى عنك عقد الزواج !

ـ فى مثل هذه الظروف التقى أبواك ، وتسنى لهما أن يتدبرا أمرهما جيدا !

ـ لا وجه للمقارنة ، فقد كان أبى صديقا لوالد أمى .

ـ وهل فى نيتك أن تتزوج هذه الفتاة ؟

ـ إن تفكيرى لم يصل إلى هذا المدى بعد . وكل مرادى أن أجد فرصة للانفراد بها أحيانا كى يعرف كل منا صاحبه ! ولو كنا فى إنجلترا لوسعنى أن أخرج معها للنزهة علانية وأن أصحبها إلى السينما وأزورها فى بيتها وأدعوها لزيارتى فى بيتى ..

ـ وشىء من هذا يحدث الآن هنا بالفعل بين الشباب المتعلم على الطريقة الأوربية . ولكنك عجول أيها الشاب ! ثم أنت كسول أيضا ولا تبذل جهدا كافيا ، فالسعادة كالطائر لا بد أن تستدرجه إلى شباكك وإلا فلا صيد ! والفتيات فى هذا البلد لا يسقطن من السماء على الرجال كما تسقط الثمرة عند تمام نضجها على الجالسين فى ظلال الأشجار . بل لا بد من جنى تلك الثمار بعناية وحذر فى أوانها المناسب . ومتى تم جنيهن ، قر قرارهن فى السلال . وهى مزية لا يمكن أن تقال بصدق عن كثيرات من فتياتك الإنجليزيات !

واستسلم أنطون للصمت والتفكير ، ثم سألها فجأة : « خبرينى يا آنسة ريس : ماذا تفعلين لو أن لديك رغبتين متعارضتين تماما ، وكل منهما عزيز عليك ؟ إلى أيهما تسعين ؟ » .

ـ أهذه هى مشكلتك ؟ أهذا التعارض هو الذى يقعدك عن السعى للحصول على فتاتك ؟ هل هناك عاطفة أخرى تنازعك ؟

ـ تقريبا .

ـ فى هذه الحالة اما ان تقعد مكتوف اليدين هكذا ، تنفقد الاثنتين معا ، أو تلتزم الحزم مع نفسك وتقرر بصفة قاطعة أيهما ألزم لك ، ثم تجمع همتك للفوز بها !

* * *

أما وليد فلم يقابله أنطون فى عطلة عيد الفصح إلا مرة واحدة ، وباتفاق سابق على اللقاء فى رام الله ، إذ اتصل بأنطون تليفونيا فى المعهد يوم وصوله ، والتقيا فى اليوم التالى . وعند وصول أنطون إلى رام الله ـ معولا على قضاء نصف اليوم كله فى صحبة وليد ـ اتضح له أن وليدا لا يستطيع أن يمنحه من وقته سوى ساعة واحدة ! فقد اتفق مع شخص ما على أن يقله فى سيارته بعد ساعة إلى الخليل ، حيث يبيت ليلته ، ويرحل فى الغداة بالسيارة العامة لزيارة عمه منير فى (الظهيرية) التى سيقضى بها بقية الأسبوع . ولذا سوف لا يتسع وقته هذه المرة للقاء « طالب حمادى » ، ولكن هذا اللقاء غير ضرورى ، فسوف يجتمع شمل ثلاثتهم فى الصيف ليرسموا تفاصيل خطة التسلل إلى بئر سبع بأتم عناية .

أما فى هذه المرة فهو ذاهب إلى الظهيرية كجزء من خطته البعيدة المدى التى شرع فى تنفيذها منذ سنوات ، وهى التعرف بأهالى المنطقة ، والارتباط بأواصر الألفة مع أفراد الحرس

الأردنى الذى يراقب الحدود هناك ، توطئة للمستقبل ، لأنه
قدر فى ذهنه أن الخطر من جانبهم سيكون أشد من خطر
الحراس الإسرائيليين ، لشدة حرص الأردن على إيقاف التسلل
لما يسببه من اضطراب ومتاعب . وكان تعليق وليد على
هذا : « أنهم على صواب من وجهة نظرهم بطبيعة الحال ،
ولكننا نحن أيضا على صواب من وجهة نظرنا ، لأن من حقنا
كلاجئين أن نعود إلى وطننا وديارنا ... إنه حق طبيعى
ومقدس » .

وكان لقاء أنطون ووليد فى مقهى صغير فى وسط البلدة ،
ثم خرجا للسير معا تحت ظلال الأشجار وهما يتجاذبان
الحديث . وسأل وليد صاحبه : « كيف حالك الآن مع
طالب ؟ » .

— لا علاقة لى به تقريبا . فهو لا يكلمنى إلا للضرورة
القصوى . وما أقل فرص تلك الضرورة فى الواقع . ولا أدرى
سبب شعوره العدائى نحوى ، أهى الغيرة ؟

— إنه لا يثق بالجانب الإنجليزى فى تكوينك . ولم يكن
ينبغى لى فى الواقع ان أصارحه بأن والدتك إنجليزية .

— ولكن أباها يشعر نحو فلسطين بشعور العرب أنفسهم .

— من غير الممكن ان تحمل طالبا على تصديق ذلك !
— كم أتمنى لو أنه لم يشترك معنا فى مشروعنا .

— ولكننا بحاجة إليه . فهو دليلنا . وبمرور الزمن سيثق
بك متى وجدك جادا فى حماستك للفكرة . أخبره على كل
حال أنك قابلتنى وأننى ذاهب إلى الخليل والظهيرية .

وافترقا بعد ذلك ، وقد خامر أنطونا احساس — لا يدرى
مبعثه — بالضيق ، وكأن شبكة توشك أن تطبق عليه فلا
تفلته . إن الصفاء بينه وبين صديقه لم يعد خالصا كذى
قبل !

— ٥ —

وطوال ذلك الربيع كان أنطون يحدث نفسه بأن الصيف آت لاريب فيه . وأن وليدا وثريا سيغادران بيروت فى منتصف يونية عائدين إلى رام الله . وكانت ثريا قد كتبت إليه رسالة واحدة ، إلا أنها كانت كافية جدا ، فقد أودعتها كل ما يمكن أن يقال ، وختمتها بقولها : « احتفظ بى فى تابك يا عزيزى أنطون مثلما أحتفظ بك فى قلبى ! » .. ووقعت رسالتها بتلك الكلمة الجريئة : « حبيبتك ثريا » .

.. وفى وسعه الآن أن يعيش مطمئن النفس إلى أن كل شىء على ما يرام . وأن قلقه الذى شاب أحلامه وأمانيه العاطفية لم يعد له محل فى حياته . فقد أوشك الحلم أن يكون واقعا محسوسا . وقد عول عند قدومها فى منتصف يونية على أن يصحبها لزيارة بيت أسرتها . وأن يطلب إلى أبيها وإلى والدتها أن يباركا خطبتهما رسميا . ولئن كانت ثمة صعاب تكتنف سبيلهما ، فهى صعاب ما أهونها أمام العزم الذى استقر من الجانبين . وكل ما يصبو إليه الآن أن يحل اليوم الذى تتأكد فيه هذه السطور المقروءة بلمسة اليد ولمسة الشفاه !

وذات يوم ، تكررت مفاجأة اللقاء فى القدس فى شهر ابريل ، ولكن بصورة أخرى ، عندما رآها ذات يوم تجتاز فناء

المعهد وفى صحبتها رجل لم تزل به آثار الشباب ، نحيف القامة ، يشبهها شبها شديدا ، فأدرك على الفور أنه أبوها . وكان أنطون يلقى درسا فى الهواء الطلق تحت شجرة ، عندما رأى الزائرين يقتربان ، فاشتد وجيب قلبه ، وصرف التلاميذ .. ثم تقدم للقاء ثريا والدكتور سابا . وكانت ثريا ترتدى ثوبا أبيض وحذاء أبيض اللون عالى الكعب ، وتبدو فى أوج جمالها . وصاحت به بعد أن قامت بتقديمه إلى أبيها :

ــ لابد أن تعود معنا لتناول الغداء ، لأنى أريد أن أقدمك إلى والدتى وسائر أفراد الأسرة .

ــ لست أدرى هل هذا فى المستطاع أم لا ، لأن لدى درسا سألقيه فى الثالثة بعد الظهر .

وعندئذ قال الدكتور سابا إن العميد صديقه ، وأنه سيرجوه أن يمنح التلاميذ عطلة بعد ظهر ذلك اليوم . وبعد قليل كانت سيارة الدكتور سابا تقلهم ، وقد جلس الدكتور إلى جوار السائق ، وجلست ثريا مع أنطون فى المقعد الخلفى .

وقد تشابكت يداهما خلسة . وقال لها هامسا : « يجب أن نطلب إليهم اليوم الموافقة على إعلان خطبتنا . » . فاحمر وجه ثريا وهزت رأسها ، وضغطت على أصابعه ضغطا شديدا . وخيل إلى أنطون أنه لن يشعر ما عاش بمثل السعادة التى غمرته فى هذه اللحظة !

أما انطباعاته بعد ذلك فلا تتجاوز احساساته العابرة ببيت أنيق يتوسط حديقة واسعة الأرجاء ، فوق ربوة تشرف على واد عريض . وفى ذلك البيت وجوه باسمه مشرقة ، لأسماء سمعها ولكنه لا يعتقد أن ذاكرته وعت شيئا منها . ولفت نظره منها على الخصوص ، وجه امرأة خيل إليه لأول وهلة أنهـا شقيقة ثريا الكبرى ، ثم اتضح أنها والدتهـا ، وقد رحبت به أحر ترحيب ، واكدت له أن بيتهم بيته منذ الآن .

وتلت ذلك مأدبة غداء احتفالية خيل إليه أن الطعام فيهـا كان أكداسا مكدسة . وبعد الغداء انتهزت ثريا أول فرصة مناسبة وتعللت برغبتها فى الطواف به بين أحواض الزهور وأشجار الفاكهـة فى الحديقة ، كى تنفرد به هنـاك ، حيث قالت له :

— لقد قلت لأبى إننا راغبان فى إعلان الخطبة ، فقـال إنه لا يمانع فى ذلك إذا كانت أسرتك لا ترى مانعا من إعلانهـا ، إلا انه لا يريد أن يتم هذا الإعلان إلا قبيل عودتى إلى بيروت ، وعندئذ يقيم لنا حفلا كبيرا ، يدعو إليه جميع الأقارب والأصهار والأصـدقاء ، ويحضره كذلك آل منصـور وآل داود ، وياحبذا لو استطاعت والدتك القدوم أيضا .

— يا لها من فكرة بديعة . وإن كنت لا ادرى بالضبط هل سيكون فى مقدورها أن تحضر فى ذلك الحين ام لا .

والفيا نفسيهما تحت عريشـة من نبات الجهنمية تواريهما عن أنظار من فى البيت ، فوقف والتفت إليها بنظرة رجـاء . ثم احتواها بين ذراعيه وأطبق بفمـه على شـفتيها ، ولكن شفتيها لم تنفرجا تحت قبلته على نحو ما كانت تفعل روزا . وعندما أفلتها من بين ذراعيه تنهدت وقالت بأنفاس متقطعة .

— هيا بنا نعود إليهم قبل أن يفتقدونا .

— ولكنى أريد أن أعرف منك هل تحبيننى ؟.. هل ؟

— طبعا . طبعا . أنت تعرف هذا . وقد كتبته إليك !

— فأطلق ضحكة سعادة صافية وتأبط ذراعها عائدين .

* * *

هذا كله لم يكاشف به أنطون صديقه وليد الذى زاره بعد بضعة أيام وهو فى طريقه إلى الخليل . وتحت ظـلال شجرة تين عتيقة فى طرف الضيعة الأقصى ، جلس « طالب معهمـا ، وراجع الثلاثة خطة العمل .. فقال لهما وليد إنه سوف لا يعود إلى رام الله قبـل تنفيذ المشروع . وأن عملية بئر سبع سيبدأ تنفيذها فى اليوم التالى لوصول طالب وأنطون إلى الظهرية ، حيث سيتظرهما . والمراسلات قبل ذلك ممنوعة !

وكان من المقرر أن يحصل طالب على إجازة مدتـا أسبوع فى شهر سبتمبر ، على أن يختار أسبوعا لا يكون القمر فيـه بدرا . وأخرج وليد من جيبه مفكرة ، وبدأ الثلاثة يتناقشون فى التاريخ .

وانتهز أنطون هذه الفرصـــة وراح يتأمل وجهى زميليـــه الجـــادين ، وشعر على الفور باختلافهما عنه . وأن علة ذلك الاختلاف كامنة فيه هو وفى ظروفه . فهذه العملية التى ظـــل يحلم بها طيلة أربع سنوات ، لم تعد بالنسبة له الآن فى المقام الأول من الأهمية . لم يعد حريصا على الانطلاق نحو الظهيرية كما كان يتمنى منذ بضعة شهور . فكل أمانيه اليوم محصورة فى البقاء قرب ثريا . وما من شىء بعد ذلك يعنيه . وكأنمـــا عودته من أرض المنفى لم تكن إلا من أجلها . أما طـــريق بئر سبع فبدأت تتخلى عن مكانتها كى تحتلها طريق أخرى ، هى الطريق إلى ثريا !

وفى الوقت الذى انصرف فيه صاحباه إلى مناقشة أنسب موعد ، كان هو يسترجع بضاضـــة شفتى ثريا المطبقتين ، وزفرتها الصغيرة بعد ذلك ، وقد تحولت من طالبة طب واثقة بنفسها ، إلى فتاة عاشقة مرتجفة الأوصال بين يديه !

وقطع عليه صوت وليد الجـــاد حبـــل تأملاته الحالـــة : « أليس هذا رأيك أيضا يا أنطون ؟ » .. فأسرع يقول له : « هو ما تقول . ويخيل إلى أنه سيكون فى وسعى أن أحصل على عطلة فى نفس الوقت الذى يحصل فيه طالب على عطلته ، لأننا لا نعمل فى قسم واحد من أقسام المعهد ، بل فى قسمين مختلفين » .

فتجهم وجه وليد وقال : « ليس حديثنا الآن عن التواريخ . فقد فرغنا من هذا . وإنما كنت أقول أنك ينبغى أن ترحل من

الخليل إلى الظاهرية بمفردك ، وأن يسافر طالب إليهـــا مع أقاربه الذين سيحضرون إلى الخليل لاصطحابه » .

ــ بمفردى تماما ؟

ــ ليس تماما . بل سأرسل عمى منير لاصطحابك . وإنما الغرض من هذا ألا تسافرا معا أنت وطالب .

ــ يؤسفنى أنى لم أكن مركزا ذهنى فى الحديث . ولكنى موافق طبعا على هذا الرأى .

فقـــال طالب عندئذ بلهجـــة باترة : « لعلك ــ فى اليـــوم الموعود ــ أن تركز ذهنك ، لأنك ستكون بحاجة إلى تركيزه ، مع كل خطوة تخطوها عند التسلل !

— ٦ —

ومن لندن كتبت ماريان :

« عزيزى انطون » :(*)

« أسعدنى أن أعلم أن الأمور جرت على نحو ما تمنيت ، بشأن ما بينك وبين ثريا . وكذلك سعد جداك بهذه الأنباء ، وليس هناك ما يمنع مطلقا من إعلان خطبتكما رسميا ، مادامت هذه رغبتك ورغبة آل سابا . أما عن اقتراحك أن أحضر بالطائرة لشهود ذلك الحفل فى أوائل أكتوبر فهو اقتراح قريب إلى نفسى جدا ، وستكون مناسبة طيبة للاجتماع بسائر اقاربى الفلسطينيين مرة أخرى فى رام الله . والحقيقة أنه من الجائز أن أحضر إلى عمان فى نهاية سبتمبر ، لأعمال تتعلق بالصحيفة ، ولم اشأ أن أذكر لك ذلك من قبل لأننى لم أكن متأكدة من التاريخ . وسأبرق إليك بموعد وصولى على أمل أن تتمكن من استقبالى فى المطار ، أنت « وكنتى » المستقبلة ثريا . جدتك وجدك يضمان صوتهما إلى فى إهداء التهانىء إليكما معا » .

وفرح انطون فرحا عظيما بهذا الخطاب . وأطلع عليه ثريا ووالديها . وشاركه فى الفرح سائر أقاربه فى رام الله ، والآنسة ريس وأمين ، وكل من يعرفهم .. فيما عدا وليد الذى لن يجرؤ على إخباره بموعد الخطبة إلا بعد الانتهاء من عملية بئر سبع !

وعلى كل حال لم يعد الاجتماع بثريا مشكلة عويصة . فقد دبر الأمر مع مستر شابلى بمساندة الآنسة ريس كى يخليه من العمل يوم الأحد من كل أسبوع ، فيركب دراجته إلى رام الله ويرى ثريا ، إما فى بيتها أو فى بيت آل داود .

ولم يكن انفرادهما أمرا كثير الوقوع فى تلك الزيارات . ولكن الفتاة لم تكن تتوقع ذلك ، وانطون كان يعلم أن الأردن ليست كبريطانيا ، وأن ثريا ليست كروزا ، وهو لا يتمنى الآن شيئا أكثر من جوارها ، ويجد فى ذلك سعادة لا يعذبه فيها الشعور بالحرمان .

وصار يجد عناء شديدا فى إرغام ذهنه على التفكير فى وليد ، فإذا نجح فى ذلك تولاه إحساس بالإثم لأنه خان ما عاهده عليه !.. ولكن الأمر خرج من يده ، لأن ثريا صارت جزءا لا يتجزأ من حياته . وكل شىء عداها هو وهم لا يستطيع أن يقنع نفسه بواقعيته .

واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن انقضى شهر يولية . وفى أغسطس بدأ يشفق من اقتراب الموعد المضروب بينه وبين وليد ، وأحس كأن شبكة تكاد تطبق بأطرافها عليه . ولكن الوقت أخذ يمضى ، ويدنو بمضيه شهر سبتمبر ، ويزداد بهذا الدنو قلقه ، حتى أنه لم يجد محيصا فى النهاية عن مناقشة الموضوع من حيث عمومياته مع ثريا ، من غير أن يتورط فى إفشاء السر الخاص بصاحبيه !

وذات يوم ، فيما هو جالس معها فى حديقة بيت والديها ، سألها عن رأيها فى التسلل عموما : « ولنا الحق كما تعلمين

فى العودة إلى ديارنا . وهو حق طبيعى ومقدس . ولئن كانت الدول الكبرى ـ وهيئة الأمم المتحدة ـ تأبى أن تساعدنا فى الحصول على ذلك الحق ، فما عذرنا أمام أنفسنا فى الامتناع عن محاولة تحقيق ذلك بأنفسنا ؟ » .

ـ إن المسألة تنحصر فى إمكان هذا العمل أو عدم إمكانه . فاذا كان التسلل ممكنا ، فجدواه مشكوك فيها .

ـ ولكن ما رأيك إذا كان التسلل توطئة لإنشاء حركة مقاومة سرية داخل الأرض المحتلة ؟

ـ كنت افهم هذا لو أن الفلسطينيين كانوا اغلبية او شبه اغلبية ، فى الأرض المحتلة .. أو حتى لو كانوا اقلية كبيرة . اما وهم لا يتجاوزون السبعين الفا ، فالعملية غير متكافئة وغير منطقية !

فنظر إليها انطون بأسى شديد ، وقال : « لو كنت واهلك من اللاجئين لما قلت هذا الكلام ! » .. فوضعت راحة يدها على ظاهر يده ، وقالت : « ارجو أن تصدقنى حين أقول لك إننى لو كنت لاجئة لكان رأيى فى الأعمال العنيفة غير المنظمة ، وغير المثمرة ، هو عين رأيى الآن ! » .

ـ ما أشبه هذا الكلام بكلام من يسمون أنفسهم ـ أو يسميهم الإنجليز ـ بالعقلاء ، أو من يقبلون الأمر الواقع ويستسلمون للهزيمة ! لقد خسرنا الجولة الأولى فى هذه الحرب مع اليهود بسبب التقصير والخيانة ، وما لم نفعل شيئا ، سنظل خاسرين إلى النهاية !

ـ ليس إلى النهاية . فعامل الزمن فى جانبنا !

ـ كثيرا ما قيل لى هذا من قبل . ولكنى لا أستطيع الصبر مائة سنة . بل لابد لنا من العمل العاجل . وإن كنت قد تعتقدين أن ما أقوله تعبير عما يسمونه « عقلية اللاجئين » .

ـ لا اكتمك أن هذا رأيى فعلا .

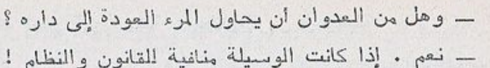
وعندئذ خيل إليه أن استمرار المناقشة غير مجد ، وتمنى فجأة لو أن وليدا بجواره كى يرفع من روحه المعنوية ويقوى من إيمانه . فقد فل من عزيمته كثيرا أن يجد ثريا معارضة لرأيه ، مثلها فى ذلك مثل أمه وجده وصديقه أمين .. وخيل إليه أن مستر شابلى يمكن أن ينير له الطريق ، فانتهز فرصة انفراده به بعد أيام ـ وهما فى طريقهما إلى إحدى القرى سيرا على الأقدام ، لزيارة أسرة لديها ابن مكفوف يزعج بسخطه وتذمره ونوبات هياجه كل من حوله ـ فألقى عليه فجأة سؤاله :

ـ ما رأيك فى التسلل ؟

ـ وسيلة خرقاء . ولا سيما من الناحية الأخلاقية ،

ـ الا تعتقد أن من حقنا نحن اللاجئين أن نعود إلى ديارنا ، ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ؟

ـ بلى ! هذا أمر لا مراء فيه ، ولكن السبيل إلى هذا ليس التسلل الفردى ، لأنه يحرج الدولة التى تستضيف اللاجئين . وليس من حقك أن تشكو من عدوان خصمك إن أنت سلكت سبيل العدوان !



ــ وهل من العدوان أن يحاول المرء العودة إلى داره ؟

ــ نعم . إذا كانت الوسيلة منافية للقانون والنظام !

ــ وما العمل إذن ؟

ــ وجهة نظرى فى هذا هى وجهة نظر المهاتما غاندى . فالوسيلة المناسبة هنا هى العمل الجماعى السلمى المناهض للعدوان والعنف . هل تذكر الزحف الكبير نحو الملح فى الهند ؟ إنك بالطبع لا تذكره لأنك لم تكن قد ولدت بعد . إن الحكومة الإنجليزية فى الهند كانت تحتكر الملح ، وتفرض عليه ضرائب باهظة ، فقرر المهاتما غاندى أن يدعو الشعب إلى الامتناع عن أداء تلك الضريبة ، باعتبار ذلك الامتناع جزءا من معركة العصيان المدنى . وتزعم المهاتما غاندى الوفا من مواطنيه زحفوا إلى شاطىء البحر ، حيث استخلص بيده حفنة من الملح ــ وهو عمل لا يعدو فى قيمته أن يكون رمزا ! ــ وعلى هذه الصورة أتمثل معسكر اللاجئين الكبير فى الأردن ، أو سائر المعسكرات الموجودة فى هذه البلاد ، وقد غادرها سكانها جميعا وتدفقوا فى مسيرة كبرى قوامها جيش عرم من الجياع المهلهلى الثياب ، زاحفين وهم عزل من السلاح نحو الحدود التى فرضت عليهم عسفا .. رجالا ونساء وأطفالا ، وجهتهم ديارهم المسلوبة .. وقد لا يتمكنون من تجاوز الحدود ، أو قد يصلون إلى الشقة الحرام . ولكنهم سيهزون ضمير العالم !

ــ ولكن مدافع اليهود الرشاشة ستحصدهم من أوكارها فوق قمم التلال ، ومن الطائرات !!

ــ وهل يعقل أن يحصدوا الوفا من العزل من السلاح فى مثل ذلك الموكب الرهيب ؟

فصرخ أنطون : « انهم لا يتورعون عن ذلك . ولن يعدو الأمر فى نظرهم أن يكون مذبحة أخرى من سلسلة مذابحهم ! » .

وهكذا انتهى ذلك الجدل أيضا إلى الاخفاق ، ولم يجد أنطون من يسانده فى موقفه .



- ٧ -

وفى أواخر سبتمبر ، قبل الموعد المتفق عليه ببضعة أيام ، قال أنطون لثريا إنه قد أزمع الذهاب لقضاء بضعة أيام مع وليد وعائلته فى الخليل ، وقد تستغرق هذه الزيارة أسبوعا على الأكثر . ووقع منها هذا النبأ موقعا غير حسن ، لأن عطلة الصيف قد آذنت بالانتهاء ، وعندئذ ستعود إلى بيروت ، فلا يتسنى لها أن تراه إلا فى عطلة عيد الميلاد .. وقالت له : « لا ينبغى لك أن تطيل الغياب ، فلا بد لنا من إعداد العدة لحفلاتنا كما تعلم » .

وكانا جالسين فى ركن منعزل من حديقة آل سابا ، فطوق كتفيها بذراعه ، فحولت وجهها إليه .. فطبع على شفتيها قبلة ناعمة ، ثم قال : « ما أسعدنى ! كم وددت لو لم يكن لزاما على ان أذهب إلى الخليل ! فلا أمنية لى سوى قضاء كل دقيقة من المدة الباقية معك ! » .

ـ لماذا إذن تذهب إلى الخليل ؟ ما الذى يلزمك بذلك ؟

ـ لقد وعدت وليدا !

ـ وهل أمره يعنيك إلى هذه الدرجة ؟

ـ إنه صديقى الكبير . بل صديقى الأوحد . كنا تلميذين فى المدرسة معا ، وظللنا على اتصال مستمر طيلة غربتى فى إنجلترا .

ـ كل هذا مفهوم . ولكنه لم يعد الآن صديقك الأوحد . فأنا الآن فى حياتك .

فأجابها بإصرار : « أنت حبيبتى ، أما هو فصديقى . والأمران مختلفان . فحبى لك لا يغير من شعورى نحو وليد . وأنا فى الواقع لا أريد أن أقتطع من وقتى معك بالذهاب إلى الخليل ، ولكنى كنت قد وعدته بذلك منذ زمن طويل جدا ، ولابد لى من الوفاء بوعدى ! » .

.. فتنهدت ، ثم قالت : « كما تشاء . ولكن لا تطل الغياب » .

ـ سأعود فى الوقت المناسب لإقامة الحفل .

ـ إن شاء الله .

ـ اجل ، إن شاء الله

* * *

وسافر أنطون وطالب معا بالسيارة العامة من بيت نحم إلى الخليل . ووقفت الآنسة « ريس » تودعهما ملوحة بيدها أمام مبنى المعهد الرئيسى . أما أمين فقال لأنطون وقد وضع يده على ذراعه : « عد إلينا سريعا ، فإنى سأفتقد أحاديثك وسمرك فى الليل .. مع السلامة » .

وفى الطريق ، لم يسأل « طالب » أنطونا إلا سؤالا واحدا بخصوص الحصول على الترخيص . وفيما عدا ذلك لم يوجه إليه كلمة واحدة !.. وكانت السيارة العامة تمر ـ فى



فتنهدت ، ثم قالت : « كما تشاء . ولكن لا تطل الغياب » ..

طريقهـا ــ بين بساتين التفـاح ، والحقـول المزروعـة ، ومعسكرات اللاجئين ، وطالب يطل على ذلك كله من النافذة بوجه صارم ،قطب ، وفى ذهنه أنه لولا عملية بئر سبع هذه ، لكان بوسعه أن يقضى أسبوع العطلة فى معسكر اللاجئين مع زوجته . أما الآن فلن يسعه أن يقضى معها ، من هذا الأسبوع كله ، يوما واحدا ولا ليلة واحـدة . ولم يكن قد أنبأهـا بأمر الإجازة التى حصل عليها ، أو ما اعتزم أن يصنعه فيها ، ولكنه قد يخبرها بعد عودته ويروى لهـا أنباء مسـقط رأسومـا (بئر سبع) .

وكان وليد فى استقبال السيارة العـامة فى الخليل ، متهلل الوجـه منشرح الصدر . فقـد تم إعداد العـدة لاستخراج الترخيصات ، وما عليهم إلا ان يذهبـوا إلى بلدية المدينـة لتسلمها .

وقال وليد لانطون إن عمه منير فى المدينـة ، وسيصحبهما فى طريق العـودة . أما طالب فيتوقع وصـول اقاربه من الظاهرية فى السيارة العامة التى تصل بعد ظهر ذلك اليوم .
وقال طالب حمادى لوليد : « ومتى سننطلق إلى هنـاك ؟ » ، فأجاب وليد : « الليلة . فليس هناك ما يدعو للتسكع هنا » .
وعندئذ سأله انطون وهو يحاول أن يجعل لهجته طبيعية : « كم من الوقت يلزمنا فى اعتقادك للوصول إلى هنـاك ؟ » ، فقال وليـد : « إن المسـافة تبلغ نحـو اثنى عشر كيلومترا بالطريق المهدة . ولكن لابد لنـا من تجنب تلك الطـريق .

وسيكون السير فى هذه الحالة شاقا جدا وتحت جنح الظلام » .

وقال طالب : « ربما استطعنا ان نقطع المسافة فى ثلاث ساعات . فقد رتبت كل شىء فى ذهنى ، على أن نتجنب المرور بالقرى والكفور » .

وكانوا يتكلمون وهم فى طريقهم إلى البلدية ، والتجهم باد على وجه طالب كالعادة . أما وليد فكان على سجيته ، إلا انه كان جادا . وأما أنطون فكان يشعر بهبوط فى قواه وروحه المعنوية ، حتى لقد عجز عن اصطناع تلك الابتسامة التى كان يجيدها . وقبل ان يصلوا إلى البلدية ، لحق بهم العم منير ، فرحب بأنطون ترحيبا حارا ! ، وقال لطالب : « بيتى هو بيتك . يا مرحبا » .

وصحبهم إلى البلدية حيث كان له صديق من موظفيها ، فاستطاع الحصول على الترخيصات على الفور ، من غير ان يتجشموا الانتظار مع عشرات المنتظرين . ثم قال وليد لانطون : « سوف لا نذهب فى هذه المرة إلى الحانوت ، لاننى لا اريد أن يعلم أقاربى بذهابنا إلى الظهيرية . ولكننا سنزورهم عند عودتنا ، وإن كانت هذه الزيارة ستتم ونحن متفرقين ، لاننى قد أبقى فى بئر سبع مدة شهر » .

ثم توجهوا إلى مطعم شعبى فى شارع خلفى بالمدينة ، وهناك شعر أنطون بحالته النفسية تزداد سوءا ، فلم يستطع أن يمس الطعام . ونظر إليه طالب بخبث ، وقال : « كأنى بك

خائف ؟ » ، وقال وليد : « كثيرا ما تتوتر الأعصاب عند اقتراب ساعة الصفر » ، فقال أنطون : « ليس توتر أعصابى بسبب خوفى من عملية التسلل ذاتها ـ فما أكثر من يقومون بها ـ ولكنى فى الحقيقة لم أعد مؤمنا بجدوى هذه العملية » .

ونظر إليه وليد نظرة صارمة ، أما طالب فضحك ضحكة استهزاء . ثم قال وليد بصوت باتر : « يبدو انك لم تعد تصلح للإيمان إلا بفتاة تدعى ثريا سابا ! إنك لم تعد تؤمن بعملية بئر سبع ، ولا بالتسلل . لأن هذه الأفكار كلها ، لم تعد مناسبة لك ! » . ثم دفع وليد صحفته من غير ان يتم طعامه ، فى حركة تدل على منتهى الاشمئزاز والتقزز ، ورفع نظره إلى انطون وقال : « هناك سيارة عامة تقوم إلى بيت لحم بعد الظهر . ومن الخير أن تستقلها . بل لعل أفضل من هذا وذاك أن تعود إلى إنجلترا حيث تنتمى ، وأن تقلع منذ الآن عن ادعاء انتمائك إلى العروبة التى كان أبوك من أبطالها . انت إنجليزى كأمك ! إنجليزى حتى النخاع ! » .

ونهض انطون عن المائدة ، وقد شحب وجهه شحوبا شديدا حتى حاكى الثلج فى بياضه ، وقال : « سأنصرف ، لأنه لم يعد ثمة مبرر لبقائى » ... فقال وليد بمرارة : « إطلاقا » .

وأطلق طالب ضحكة ساخرة ، وأولاهما انطون ظهره ، ولم يلبث ان اختفى .

— ٨ —

وبعد ظهر ذلك اليوم ، وصلت إلى حانوت أقارب وليد بالخليل ، برقية باسم أنطون بطرس منصور محولة من بيت لحم . وكانت هذه البرقية بعينها قد وصلت إلى المعهد فى الصباح بعد رحيل أنطون وطالب . فلم يسع مستر شابلى — بعد استشارة الآنسة ريس ، والرجوع إلى أمين — إلا أن يحول البرقية إلى عنوان أقارب وليد ، لأن المفروض أن أنطون سينزل ضيفا عليهم هناك طيلة ذلك الأسبوع .

وكانت البرقية من أمه ، ونصها : « أصل (عمان) فى منتصف السادسة صباح غد بتوقيت الأردن » .

وكان المفروض طبعا أن تصل البرقية إلى أنطون فى اليوم نفسه ، كى يغادر الخليل إلى عمان فى الحال لاستقبال أمه .

ولما كان الشبان الثلاثة قد تحاشوا المرور بالحانوت — فى الخليل — فقد تحير أقارب وليد فى معنى تحويل هذه البرقية إليهم . وأخيرا قرروا الاحتفاظ بها إلى أن يسأل عنها صاحبها !

وفى هذه الأثناء ، كان الصراع ناشبا فى سريرة أنطون : بين إيثار السلامة ، وبين المضى فى الكفاح الوطنى كما اتفق عليه مع صديقه وليد !.. ولم يدم ذلك الصراع طويلا ، لأن حمية الشباب ، ونخوة القومية ، أشعرتاه بالخزى لموقفه المتخاذل ، ولم يأت الأصيل حتى كان قد غير اتجاهه وأخذ طريقه إلى الظهيرية — وليس إلى بيت لحم — ليحاول اللحاق بصاحبيه .

وكان منير حسين وزوجته يتأهبان للنوم ، عندما طرق بابهما طارق ، فبادر منير إلى بندقيته القائمة فى ركن من الحجرة ، وخرج سعيد من الحجرة الأخرى وفى يده بندقيته . فقد تعود أهل الظهيرية أن يطرق بابهم أفراد الحرس الوطنى للإنذار بغارة من غارات اليهود على الحدود . وقد يكون الطارقون هم المغيرون أنفسهم . أو هم أفراد الحرس الوطنى وقد ضبطوا وليدا وطالبا يحاولان التسلل فجاءوا لإلقاء القبض على سكان الدار أيضا بتهمة التواطؤ !.. وصاح منير بصوت أجش : « من هناك ؟ » .

— انا أنطون منصور . صديق وليد .

وعلى الفور فتح الباب . ولم يأبه أنطون بالرد على عبارات الترحيب والمجاملة ، بل صاح فى لهفة يسأل عن وليد وطالب .. فقيل له : « لقد رحلا منذ ساعة ، ولن تستطيع اللحاق بهما الآن فى الظلام . استرح » .

وجلس أنطون ، ثم تناول قدح اللبن الذى قدموه إليه ، وهو يقول : « إنى فى غاية التعب . فقد جئت سائرا على قدمى من الخليل . والمسافة ليست طويلة ، ولكنى حرصت على الابتعاد عن الطريق حتى لا أقع فى يد الدوريات الليلية . ولابد لى الآن من اللحاق بهما . فقد تشاجرت مع وليد وافترقنا متخاصمين . ولكنى راجعت نفسى . ولابد لى الآن من الانصراف حتى لا تزداد المسافة بينى وبينهما . ألا تظن أنى سأدركهما ؟ » .

ــ هذا يتوقف على سرعتهما فى المرحلة الأولى . وهذه المرحلة تقع فى الشقة الحرام . وهى أصعب المراحل . ولكن طالبا يعرفها باشبر . ووليد قضى السنوات الأخيرة فى تفقدها بين الحين والحين ، وهو يتظاهر برعى الأغنام أو العمل فى الحقول ، كلما سنحت له فرصة للحضور إلى هنا . أما أنت فمن الجنون أن تجازف بالمضى وحدك لأنك لا تعرف تفاصيل الأرض فى هذه المنطقة .

ــ ولكن لا مناص لى من الذهاب !

ــ وما الذى جعلك تغير رأيك ؟

ــ وجدت أن إحساسى العميق بقوميتى أرجح عندى وأبقى من نداء العقل ، وصوت المصلحة ، وروابط العواطف الأخرى . وأحزانى أن يصمنى طالب بأننى إنجايزى . ثم لم يلبث وليد أن تبعه فى ذلك ورمانى بأننى لا أصلح إلا لصحبة النساء !

ــ ولكنك على الأقل يجب أن تأكل شيئا قبل أن تنطلق .

ولم يسع أنطون إلا أن يشرب الشاى ويأكل كعكة مما قدم إليه على خوان من النحاس ــ على الطريقة العربية ــ مع شىء من جبن الماعز والزيتون الأسود . ثم كرر عليه منير ووالده العجوز النصح بألا يجازف بالتسلل فى الليل وحده وهو يجهل كل شىء عن المنطقة . ولكن أنطونا قال : « لابد من هذا . وفى وسعكم أن تساعدونى . فإنى أعلم أن طالبا رسم خريطة لهذه المنطقة غاية فى الدقة . فهل لديكم هذه الخريطة ؟ » .

وجاءه منير بالخريطة . وكان أنطون قد تدرب على قراءة الخرائط العسكرية فى معسكر التدريب فى إنجلترا ، وأظهر فى ذلك تفوقا ملحوظا ، فجعل يطبع فى ذاكرته جميع التفاصيل . وكى يطمئن منيرا طوى الخريطة ثم شرع يرسمها من ذاكرته . فلم يترك منها شاردة أو واردة .

وعلى باب الدار ، ودعه منير وسائر أفراد البيت ، قائلين :

ــ كان الله معك . مع السلامة .

* * *

وكانت الليلة حالكة السواد ، لا قمر فيها . وأخذ انطون يتحرك بحذر ، والخريطة مرتسمة فى مخيلته ، وهو يحرص على الا يحدث صوتا بمشيه فوق الحصى الكبير غير المتماسك . وفى بعض المواضع كان يضطر للزحف . وقدر ان وليدا وطالبا لابد قد اجتازا خط التقسيم ودخلا فى البرية منذ اكثر من ساعة . ولعلهما قد اجتازا البرية أيضا ووصلا إلى سفح التل . وحين يقترب منهما ــ زاحفا فى الظلام ــ قد ينتابهما الرعب ، بل قد يثبان إليه ، ولكن حسبه أن يهمس باسم وليد ، قائلا له « ها أنذا قد أتيت يا وليد ! » .

وهدأت نفسه عند هذه الخاطرة . وكانت الطريق تبدو متعرجة بين التلال ، منحدرة إلى بئر سبع . وجلس يستريح قليلا ويلتقط أنفاسه اللاهثة ، ويصغى لسكون الليل يمزقه نباح كلب فى مكان بعيد ، عند احد معسكرات البدو . وجاوبته بالنباح كلاب أخرى فى قرية مجاورة ثم لم يلبث

الصوت أن خبا . وأعقبته بعد قليل نغمات من ناى يعزفه شخص ما داخل كوخ مقفل .

وانتقلت خواطره إلى الحراس اليهود الكامنين فى أوكارهم فوق التلال من الجانب الآخر . أتراهم يلعبون الورق الآن بين نوبات الحراسة وأوقات الداورية ؟ هل إحدى دورياتهم الآن تجتاز الوادى ؟ إن مثل هذه الدوريات هى الخطر الحقيقى ، أما الحراس فوق رؤوس التلال فلا خطر منهم فى هذا الليل البهيم . وإنه ليعجب كيف استطاع وليد وطالب أن يفلتا .

ونهض وشرع يهبط إلى بطن الوادى بحذر . وكانت الحصباء تنزلق تحت قدميه ، ولكن صوتها لا يسرى فى الليل طويلا . وهو مستمر فى زحفه ، مستترا بالصخور البارزة ، متنقلا بينها على يديه ورجليه . ثم يتوقف بين الحين والحين ، ويصيخ السمع .

واصطدم فى زحفه بشجرة من الشوك ، فأدمت يده وكاد يصرخ من الألم ، وانبجست الدموع من عينيه ، ثم زايله الألم عندما جمد الدم فى عروقه لسماعه نباح كلب يقترب منه بخطوات واسعة . ثم لم يلبث النباح أن بعد ، وتبين أنه لم يكن كلبا كما يخشى ، بل ابن آوى .

كان يتقدم ببطء والمسافة قد أمست فى نظره أطول مما يتصور . وتراءت له على البعد أنوار كشافة فخفق قلبه خشيه أن يسقط عليه شعاع من أنوارها من فوق إحدى

القمم ، وأنشأ يجرى كى يختصر المسافة ويحتمى بالجانب الآخر حيث سفح التل ، وحيث يقدر أن صاحبيه قد وصلا منذ حين . وتعثر وهو يجرى ، وسقط على وجهه ، فظل بلا حراك وقتا طويلا ، وهو يرهف السمع ، ولما اطمأن أخذ يزحف على بطنه خائفا من الوقوف على قدميه ، وجعل يشجع نفسه بجميع الخواطر الممكنة ، ويحاول أن يتذكر بقية الخريطة ، وموضع بيت شقيق طالب قرب السوق فى بئر سبع . ونظر من فوقه إلى النجوم وقد أخذت تتكاثف فيما خيل إليه .

واستجمع قواه ونهض ، وأخذ يجرى بخفة .. ولكنه تعثر مرة أخرى ، فعدل عن الجرى إلى السير البطىء ، إلى أن وجد الأرض مستوية تحت قدميه ، خالية من الصخور التى يمكن أن يتوارى خلفها حتى قاعدة التل التى يقدر أن صاحبيه يجلسان عندها . وتمنى لو استطاع أن يقطع هذه الأرض المكشوفة منتصب القامة ، حتى يرياه على تلك الحال ، ولكنه لم يجسر . واستمر يزحف على بطنه . وفجأة تجدد النباح . واقترب الكلب منه اقترابا شديدا ، فالتقط حصاة تقذفه بها . ولكن نباح الكلب اشتد ، ثم تبين عينيه فى الظلام على قيد أقدام قليلة منه . ثم سمع لغط كلام لم يتبينه ، فلم يكن أمامه إلا الفرار السريع . ووثب كالأيل الشارد ووجهته بطن الجبل ..

ومزقت سكون الليل طلقات مدفع رشاش !

ومات أنطون قبل أن تسقط جثته الدامية على أرض الشقة الحرام .

* * *

وبعد بضع ساعات بزغ الفجر على وليد حسين وطالب حمادى وقد دخلا بئر سبع .. وعلى طائرة ماريان وهى فى طريقها إلى عمان .. وعلى ثلة من الرجال يحملون إلى خط التقسيم جثة شاب فلسطينى ليسلموها إلى حرس الحدود الأردنيين .

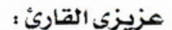
وتجمع حشد من الناس صامتين ، كأن على رؤوسهم الطير .

إنه شهيد آخر ــ ولن يكون الأخير ــ على الطريق إلى (بئر سبع) !

« تمت القصة »







«إيثيل مانين» - مؤلفة هذه الرواية المشوقة - روائية إنجليزية معاصرة «من أصل ايرلندي . ولدت في لندن عام ١٩٠٠ . وهى تعتبر «عصامية» ثقفت نفسها بنفسها - إذ اضطرتها الظروف إلى ترك المدرسة في سن ١٤ سنة . كي تعمل كاتبة اختزال في وكالة للإعلانات . ثم تدرجت في العمل حتى صارت - في سن ١٧ سنة - مساعدة لمحرر المجلة المسرحية والرياضية (ذى بليكان) .. وفى سن الثانية والعشرين كتبت روايتها الطويلة الأولى . ودخلت بها مسابقة للقصة الطويلة . ومنذ ذلك التاريخ دأبت على نشر رواية طويلة كل عام بانتظام .. كما ألفت عدة كتب في أدب الرحلات وصفت فيها سياحاتها في كل من (بورما . والهند . وروسيا . والمغرب . ومقاطعة (بريتانى) بفرنسا . واليابان . ثم الشرق الأوسط) . وقد ترجمت كتبها إلى اللغات : الفرنسية . والألمانية . والهولندية . والأسبانية . والإيطالية . والسكندنافية . وهذه القصة الممتعة التي صورت فيها مأساة العدوان الصهيونى الغادر على عرب فلسطين خلال حرب ١٩٤٨ هي أحدث رواياتها . وقد صدرت في لندن منذ بضعة أعوام . وصدرتها بالإهداء التالى : « إلى اللاجئين الفلسطينيين . ومن أجلهم . أولئك الذين قالوا لي في كل الأقطار العربية التى استضافتهم : (لماذا لاتكتبين قصتنا نحن . قصة الخروج الآخر - خروجنا نحن ..) .. « وأعطيتكم أرضاً لم تتعبوا عليها . ومدناً لم تبنوها وتسكنون بها . ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون !»

(سفر يشوع من التوراة . عدد ٢٤ / ١٣)

وكتبت المؤلفة مقدمة للرواية قالت فيها : «حتى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ كانت ثمة دولة تسمى (فلسطين) . وهى بلد عربى الصبغة بصورة واضحة . وحين صدر وعد «بلفور» في نوفمبر ١٩١٧ مقرراً أن الحكومة البريطانية تؤيد قيام وطن قومى لليهود في فلسطين . كانت غالبية السكان هناك من العرب . بنسبة تزيد على ٩٠ فى المائة . إذ كان فى فلسطين يومئذ نحو ٥٠ الف يهودى . أما المسلمون والمسيحيون فكان عددهم نحو ٦٧٠ ألفا .. ولكن فى سنة ١٩١٥ كان اليهودى والصهيونى البارز «هربرت صموئيل» قد نادى بهجرة ثلاثة او أربعة ملايين من اليهود إلى فلسطين تحت الحماية البريطانية . فوضحت من ذلك المطامع الصهيونية بصورة لا خفاء فيها . وثبت أن مايرمون إليه ليس إنشاء وطن قومى لليهود بل إقامة دولة يهودية مستكملة الأركان !! ولما صدر إعلان بلفور بعد ذلك بثلاث سنوات . كان الحل البديهى فى نظر اليهود هو ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين بحيث يصبح اليهود هناك أغلبية ! وفى سنة ١٩١٩ أصدر الزعيم الصهيونى «وايزمان» تصريحه المشهور بأن فلسطين ينبغى أن تصير يهودية مثلما تعتبر انجلترا إنجليزية !! وعند نشوب الحرب العالمية الثانية كان عدد اليهود فى فلسطين قد قفز من ٥٠ ألفا إلى ٦٠٠ ألف !!

